

شجرة التوت



الحقوق كافة
محمولة
لاتحاد الكتاب العرب

E-unecriv@net.sy

البريد الالكتروني:

mail :

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

<http://www.awu-dam.org>

□□

حسين عبد الكريم

شجرة التوت

- رواية -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق - 2002

الفصل الأول

في طفولتي رأيت شجرة التوت البرية تمشي باتجاه بيتنا الترابي المخلع،
وياتجاه كل البيوت، ورأيته تلم الجيران تحت أغصانها، ورأيت صاحبها أبا
يوسف رجل القرية العتيق، وسمعتة يحكي حكايات طيبة عن العيش والأيام،
وسمعتة يغني أغنيات: تشبه برد الصيف ورنين أصوات المراعى.

في يوم من أيام المدرسة، ونحن نهم بالسير عبر الدرب المؤدي إلى
المدرسة، استوقفنا شجرة التوت... واستوقفنا صوت أبي يوسف وهو يحكي لابن
الأحمد وابن الصبرة وابن الصالح:

- هل سافرت يا ابن الأحمد إلى تركيا؟

- لا... لم أسافر...

- وأنت يا ابن الصبرة هل سافرت إلى تركيا؟

- لا... لم أسافر...

- أنا سافرت سيراً على قدمي إلى استانبول...

- وكم يوماً بقيت حتى وصلت؟

- سبعة أيام بلياليها... وقيل هذه السفرة سافرت إلى بلاد بعيدة.

أحببنا أنا وسلمان ولد ابن يوسف بو حمود وسمر بنت ابن الأحمد أن نقرب
أكثر من شجرة التوت من صوت أبي يوسف وملامحه...

وقفنا خلف حفاف أرض شجرة التوت واحتمينا بشجرة الزنزلخت المجاورة

للدرب خوفاً من أن يمنعنا ابن الصبرة أو ابن الأحمد أو سواهما من أن نسمع
حكايات أبي يوسف... رغم أننا لم نمسك بجذع شجرة التوت، ورغم المسافة
القصيرة التي بقيت تفصلنا عن أبي يوسف والمصطبة والجالسين عليها، بلغت
أعماقنا رائحة أوراق التوتة، وسمعنا جيداً حديث أبي يوسف مع ابن الأحمد وابن
الصبرة وابن الصالح، وعابئنا ملامحهم:

سأل ابن الصبرة:

-وكم بقيت يا أبا يوسف في استانبول؟

-بقيت أقل من سنة... كنت لا أنسى شجرة التوت وعشرتها وكأنها معي...
وكنت أخاف عليها من اليباس أو العطش...

لم يتم أبو يوسف حديثه، لأن صوت أم يوسف قطع عليه وعلى الجالسين
الحديث...

-في عمرك كله لم تترك عادتك... جمعت بيضات الدجاجات كلها،
ووضعتها بالسلة، وأخذتها إلى الدكان ورجعت وأنت على المصطبة وابن الصبرة
وابن الصالح وابن الأحمد عندك، وحديثكم لم ينته، ودخان سيكاراتكم لا ينقطع،
وكان الدنيا ما فيها إلا شجرة التوتة والمصطبة وشرب الدخان والأحاديث...

شاهدنا- نحن أولاد المدرسة -أم يوسف من بعيد واختبأنا في جهة من
جهات أرض ابن الحمودة المجاورة لأرض شجرة التوت هرباً من كلماتها القاسية.

قال سلمان ولد يوسف بوحمود:

سلة أم يوسف مملوءة بالأكياس:

ردت عليه سمر بنت ابن الأحمد:

تكون أعطت البيضات لصاحب الدكان، وأخذت منه حاجات للبيت. بقيت
سمر منتبهة إلى مشية أم يوسف المتمهلة جداً، ومنديلها الملفوف على رأسها
بإتقان، وشفتيها المتوترتين، حتى يظن من يراها أنها تستعدان للبصاق أو لقلبة
حربية.

قالت سمر: أم يوسف دائماً تمشي على مهلها، ودائماً لا تضحك لأحد،
حتى لأبي يوسف...

قبل أن تصل أم يوسف بادرها ابن الصالح بالحديث:

كنت تبيعين البيضات، وماذا أحضرت معك من الدكان؟

-زادت أم يوسف زم شفيتها وكأن القنبلة الموقوتة تكاد تتفجر ...

-أبو يوسف أنهى لف لفافة التبغ في يده، وأشعلها ومسح وجهه بكفيه، وعاد إلى جذع التوتة ومسحه بكفيه، وراح يعاين أغصانها وشكل أوراقها والعصافير المنتشرة في جهاتها، ونسي أن يلتفت إلى جهة الشمال حيث وقفت أم يوسف وراحت تبحث عن بيضات الدجاجات وعن الأفراخ... التي لم تستقل بعد عن الدجاجات الكبيرة التي فقستها...

بعد أن أنهت أم يوسف جولتها التقديرية وتأكدت من أن بعض البيضات غير موجودة في الأعشاش المخصصة للبيض، ازدادت شفتاها توتراً وازدادت مشيتها تمهلاً، قالت لأبي يوسف:

-أنا أعرف أن عادتك لن تغيّرهما، الولد الذي تصادفه ستعطيه إما بيضة، وإما تعطيه الفرنكات التي معك...

أخذ أبو يوسف نفساً عميقاً من لفافته، وابتسم ابتسامة هادئة انسربت من كل ملامحه، وقال:

-يا أم يوسف! بعض الدجاجات ما باضت اليوم...

-هذا عذرك الدائم... أنا متعودة على فنونك...

-تعوّدِي على فنوني، واسقينا الشاي، وستزداد البيضات.

ضحك ابن الصبرة، فبانّت تجاعيد وجهه، ومثله ضحك ابن الأحمد، وابن الصالح. مالت أم يوسف ميلاً يميناً وميلاً يسرى باتجاه عتبة البيت...

حين دخلت طارت بعض الحمامات طيراناً يسيراً وعادت إلى دوحها، وكأنها بذلك ترحب بأم يوسف وتطالبها ببعض حبات القمح...

اتجهت أم يوسف إلى مصطبة البيت، وصعدتها. أخذت الإبريق المعلق بمسمار خاص به في عمود البيت. عمود البيت يتوسط المصطبة الداخلية، وهو معني بحمل الكثير من الأغراض والحاجات، مسمار علق به طبق القش، وآخر علقت به جرة الزيت، وآخر علقت به حقيبة فناجين الشاي، وإلى يسار العمود يستريح/البابور/ والسراج/وعنبر القمح...

أمسكت أم يوسف الإبريق وملأته من الجرة الموجودة على المصطبة في جهتها الشرقية حيث الحائط، وأقبلت على العمود، فأخذت الحقيبة المخصصة

للسكر والشاي فغرفت بيدها ما اعتقدت أنه يكفي من الشاي ومن السكر، وانتقلت إلى /الباور/ أشعلته على عجل، ووضعت الإبريق عليه، وانتبهت إلى أفراخ الحمام والحمامات الكبيرة.

أعشاش الحمام كان أكثرها داخل البيت، في طاقات خاصة، وكان بعضها فوق العتبة في صناديق وعلب، وبدراية تعرف أم يوسف كل حمامة من حمامات البيت وتعرف صوتها ولونها. وتعرف إن كانت جائعة... وتعرف الأفراخ معرفة حاذقة، فلا يمكن لا أحد أن يضلها عن الأعشاش أو الأفراخ... ولهذا كانت تتشب بينها وبين أبي يوسف معارك دائمة عندما يذبح بعض الأفراخ، ليشويها ويأكلها، أو ليطعم بعض ضيوفه في غيابها.

انتهت أم يوسف من إعداد الشاي وغليه، وأحضرت الفناجين الكبيرة، وحملتها على طبق من قش وخرجت إلى مصطبة شجرة التوت، حيث جلس أبو يوسف وجيرانه يتجادلون أطراف الحديث وأحياناً يمزقون الحديث وأطرافه بسبب الخلافات التي تتشب بين ابن الصبرة وابن الصالح لكل أمر ولكل شاردة وواردة.

سبق صوت أسعد الشحاذ صوت أم يوسف وطبقها القادم بالإبريق والفناجين...

قال ابن الأحمد:

أسعد الشحاذ عند بيت ابن الحمودة تحت شجرة التوت التي أمام بيتهم.
رد ابن الصبرة: جاء الصوت من جهة الساقية لا من جهة بيت ابن الحمودة.

قال ابن الأحمد لابن الصبرة:

انتظر لحظات، وسترى من أين جاء الصوت. أبو يوسف بعد أن سكت ابن الأحمد قال: صوت أسعد الشحاذ قريب، وآتٍ من جهة قريبة لا من جهة بعيدة، وبيت ابن الحمودة أقرب من الساقية.

بيت ابن الحمودة قريب من بيت أبي يوسف... والأرض التي أمامه تتاخم أرض شجرة التوت، وتكاد لا تتفصل عنها لولا الحفاف الموجودة بين الأرضين... والدرب المنطلق من أمام بيت أبي يوسف يمر قريباً من بيت ابن الحمودة. بينما الساقية بعيدة عن بيت أبي يوسف، بينها وبين شجرة التوت تتراعى مروج وكروم الضيعة... بعد تخم أرض التوتة وبيت أبي يوسف تنهض أشجار زيتون كرم ابن الأحمد، وبعد كرم ابن الحمودة، وقرب الساقية من جهتها الشمالية

والجنوبية يمتد مرج ابن الصبرة وكرم زيتونه، وبعده إلى الشمال كرم ابن الصالح، وإلى الشرق من الكروم تتراعى مراعي ضيعة شجرة التوت وبراريها الفسيحة... ومن المميّز في حياة أبي يوسف وشجراته البرية، أنه كان مولعاً بالمراعي ومساءات الضيعة، وأن تخوم أرض شجرة التوت لا تنفصل عن البراري والمراعي بأي فاصل ولا تتأى عنها مهما اشتد عليها العطش.

شرب أبو يوسف وجيرانه فناجين الشاي التي قدمتها أم يوسف بسرور وبهجة، لأن أبا يوسف عاد إلى حديث الأيام وشجرة التوت:
هل تعرفون أنني أيام سفري وعملي في البلاد البعيدة اختلفت أنا والناظر علينا...

قال لي:

-أنت مقصر في عملك.

-لا أنا ما قصرت...

-سأجعلك تتوب... وتترك عملك... وتساقر إلى بلدك...

في ذلك اليوم لم أستطع أن أكل من شدة غيظي من أمر ذلك الناظر... لكنني في وقت الهاجرة والناس يأكلون رقدت رقدة سريعة واستيقظت، فأحسست أن شجرة التوت أمامي وأن الناظر يحاول أن يقطع أغصانها ويقتل عصافيرها ويهدم المصطبة التي إلى جوارها. حاولت أن أقف في وجه الناظر وأضربه، لكنني في أول الأمر كنت أضعف من أن أفعل أي شيء، خفت أن تنتهي شجرة التوت، وتنتهي رائحتها وعشرتها مع الجيران والبراري القريبة منها...

وقبل أن يقطع أغصانها رأيتها تختفي في جهة لم يستطع الناظر معرفتها وتحديدها، وأحسست أنني اختفيت معها، وأن الناظر فشل في بحثه عني وعن شجرة التوت... وأن بصيرته عميت عني وعنها وعن القرية، وبعد أيام قليلة عدت من سفري، وكانت أم يوسف ولدت يوسف...

توتة أبي يوسف متميزة بلامحها ونشأتها وحياتها عن سائر أشجار التوت في القرية... فهي برية وقديمة، ولا يعرف بالتحديد تاريخ ظهورها، وهي واسعة الأغصان وقوية الجذع... ابن الأحمد لم يجلس مرة عند أبي يوسف إلا أخذته الدهشة إزاء جذع شجرته القوي... وقد سأل ابن الصالح وابن الصبره عن سر ذلك.

أبو يوسف نهض ودخل إلى البيت، ليملاً علبه الدخان، وابن الأحمد راح

يتأمل جذع التوتة المتين والراسخ، ولم يقطع تأملاته إلا صوت ابن الصالح:

-أين رحلت يا ابن الأحمد؟؟-

-إنني متعجب من أمر هذه التوتة يا ابن الصالح.

قال ابن الصبرة:

-أنا مثلك أتعجب من قوة وكبر هذه التوتة، فلا يوجد في كل القرية، ولا في القرى التي زرتها شجرة بقوتها وكبرها وقدمها.

رد ابن الصالح:

ويزيدها قوة وخيراً أنها في مكان قريب من المراعي وقريب من كل الدروب، وتحت أغصانها تجتمع نساء القرية لقص القمح في الجرن القديم... نظر ابن الأحمد إلى يسار التوتة حيث أشار ابن الصالح، ليعاين جيداً الحجر المنقور الموجود خصيصاً لقص القمح.

عاد ابن الأحمد إلى الكلام:

ولا ننسى يا ابن الصالح أن الديار بسكانها، والشجر بأصحابه، وأبو يوسف من الرجال العتيقين في قريتنا، ومن الرجال الأشداء والكرام.

قال ابن الصبرة:

أنا لا أعرف أن أنظر إلى شجرة التوت إذا لم يكن أبو يوسف قريباً... منذ أيام /الولدنه/ وأنا أرى شجرة التوت الكبيرة وأرى قرب جذعها أبا يوسف وأشاهد دخان لفافته وفنجان الشاي الكبير أمامه أو في يديه، والنساء يتواردن ومعهن القمح، ليقرنه في الجرن تحت أغصان التوتة...

أم يوسف لم تسمع إلا كلمات قليلة، لأن النعاس ملأ عينيها فنامت على الحصير الممدد على المصطبة الداخلية، وقد عرف أبو يوسف ذلك جيداً، عندما انقطع صوتها، وانقطعت ميلاتها، وسكتت أسئلتها الملحاحة بشأن البيضات وأفراخ الحمام، وجرن القمح وجرن الدجاجات... وعندما دخل إلى البيت وألفاها نائمة قال في نفسه:

"تسرب الشاي على مهل، ونلف اللفافات دون أن نسمع تقريع أم يوسف

وشكواها من الدنيا ومن الأزواج الذين لا يوفرون بيضات الدجاجات، وأفراخ الحمام.

ملاً أبو يوسف علبته تبعاً ورجع أدراجه بتؤدة كي لا يوقظ أم يوسف... هبط المصطبة واتجه إلى الباب، وعيناه الضيقتان قليلاً ترقبان كل شيء أمامه حذراً من أن تصطدم قدماه بشيء، ولو بحبة تراب لا أهل لها ولا وطن. قامت المحنية بعض الشيء من ثقل الشقاء وهموم السنين لم تذهب ببهاء أبي يوسف، بل زادت حناناً وحباً للناس وزادته احتراماً بين جيرانه... وهو يخرج من باب البيت كانت آثار السنين بادية على ملامحه... قامت أتعبتها ضربات الدنيا، وتجاويد وجهه ازدادت، وأنامله لم تعد قوية مثلما كانت أيام الشباب، قبل أن يعبر عتبة البيت أمسك بطرف /قمبازه/ الطويل ولمه ورفع حاجبيه، ليرى حالة الجو ويعرف كيف انتشرت الأجنحة في فضاء شجرة التوت، وليتبين إن كان جرن الدجاجات مملوءاً ماءً...

جرن الدجاجات يتوسط الساحة المجاورة للمصطبة، وهو باد لكل دجاجة تود أن تشرب، وجوانبه ليست مرتفعة، فهو مسطح وليس عميقاً، ليسهل على الدجاجات والأفراخ أن تشرب منه.

مشي أبو يوسف بحذاء حفاف المصطبة، عبر الدرب الضيق المؤدي إلى الساحة، فرأى أن جرن الدجاجات غير مملوء، فأقبل على الجرة الكبيرة المتكئة على حائط الساحة الغربي، أخذ عنها غطاءها النحاسي المجوف، وملاه ماءً، وسكبه في جرن الدجاجات، وأعادته إلى فم الجرة.

كان الحر شديداً، لكن مصطبة شجرة التوت، لم تبعث على الشعور الثقيل بالحر، فأغصان التوتة لم تبخل برفيفها الحنون الدائم.

لم يجلس أبو يوسف على المصطبة فور صعوده إليها، لأنه لمح زوجة ابن الصبرة قادمة، وعلى كتفها كيس مملوء قمحاً...

قال بصوته الرصين والعفوي:

جاءتك أم محمود يا ابن الصبرة.

قال ابن الصالح:

عرفت في أي وقت تجيء...

قال ابن الأحمد:

-فعلاً استطاعت أن تمسك بك حياً ترزق لتساعدنا في قشر القمح شئت أم أبيت...-

جلست زوجة ابن الصبرة قرب الجرن، وأمسكت بالحجر المخصص لدق القمح المبلى قليلاً بالماء، وابن الصالح استأذن من أبي يوسف، ومشى نزولاً عبر درب المروج والكروم.

قال ابن الأحمد لأبي يوسف:

-ابن الصالح شاب وشبابه كئيب، والدنيا لم تطعنه بعد كما طعننا...-

قال ابن الصبرة وهو يهيم بالإقبال على الجرن لمساعدة أم محمود زوجته: ابن الصالح جاري منذ سنين طويلة. أنا أعرفه وهو طفل.

رد ابن الأحمد:

-فعلاً بيتك وبيت ابن الصالح متجاوران من سنين وسنين... أنا أذكر بيت والدك وبيت والده قبل خمسين سنة تقريباً. كان حائط بيتكم يلاصق حائط بيتهم... وأرضكم مجاورة لأرضهم... وأبو يوسف يعرف أكثر مني تاريخ ابن الصبرة وتاريخ والده وتاريخ زواجه...-

-قال أبو يوسف بصوت خفيض لكنه واضح:

فعلاً يا ابن الصبرة- بيت أبيك وبيت ابن الصالح متجاوران فعلاً من أيام بعيدة... والدك في أيام كثيرة كان حين يتعب من الفلاحة في أرض الساقية، يتجه إلى حيث يكون والد ابن الصالح في أرضه التي على الساقية قرب أرضكم، ليلف سيكارة من علبته... وأذكر يوم تزوجت أنت من أخت يوسف بومحمد صاحب الدكان، وأذكر يوم تزوج ابن الصالح من بنت أخ أم يوسف، ويومها أعطاه، أو لنقل أعطى بنته -الأرض التي قرب بيتك يا ابن الأحمد...-

صمت ابن الأحمد وقال:

صدّقني يا أبا يوسف إن قصة أرض ابن الصالح التي قرب بيتي كانت غائبة عن بالي، وكنت ناسياً أن أخ أم يوسف هو الذي أعطاه لها.

ملاح ابن الأحمد متجهمة صارمة، لا يبتسم إلا في أوقات نادرة، وابتساماته تتبثق كسولة خاملة، حتى يعتقد الناظر إليه أنه يقرر أن يصرخ أو أن يبكي لا أن يبتسم، وحاله هذه لا تودعه لا في الصيف ولا في الشتاء، ولا في الصباح ولا في المساء. وتزداد توتراً ومهابة وصرامة أمام أولاده.

نظر إليه أبو يوسف فتبدى له صارماً، فقال له:

-أعجب من أمرك يا ابن الأحمد. إنك توحى لمن يراك لأول مرة أنك

ستبكي... وأنا أعتقد أن الطيور لا تجرؤ على الاقتراب منك إذا كنت غاضباً.
صمت ابن الأحمد، بينما أبو يوسف انشغل بلف لفافة تبغ جديدة، وابن
الصبرة راح يدق القمح بالحجر الأملس المخصص لدق القمح وقشره.
يدا ابن الصبرة ليستا قويتين بحيث تليّن القاسي، لكنهما قادرتان على حمل
حجر الجرن وإعادته، ومثله أم محمود زوجته، فكلاهما يشبه الآخر بالهيئة
والمثانة... وبالقد والبدانة والنحول... ابن الصبرة وأم محمود لم يستقيدا من
دهرهما إلا السمرة الفائضة عن الحاجة والشقاء الدائم، لكنهما مع كل التعب الذي
ينتظرهما كل يوم فحالهما ميسورة قليلاً وأرضهما قريبة من بيتهما. بعد أن عرق
ابن الصبرة وتعب، نزع الشملة عن رأسه، واستند إلى جذع التوتة الراسخ، ومدّ
رجليه ليسترّيح ونفخ نفخة عالية وعميقة، وكأنه يطرد من صدره الغيظ والشقاء...
استلمت أم محمود حجر الجرن وراحت تدق القمح بكل ما أوتيت من قوة...
ضربات حجر الجرن كانت تشغل الصمت وتقطعه... قدم أبو يوسف لابن
الصبرة علبه التبغ ودعاه ليلف منها سيكارة:
-خذ لف سيكارة وجرب دخان علبتي.
-بارك الله فيك وبعلبتك...

الفصل الثاني

تسلق ابن الصالح إحدى شجرات الزيتون في أرضه المقابلة لبيت ابن
الأحمد بحثاً عن الأغصان اليابسة، ليقطعها ويريح منها الزيتونة. نظر إلى بيت
ابن الأحمد، فظهرت له المصطبة الترابية التي أمام البيت، وظهرت له الأغراض
المنتشرة في جنباتها، وظهر له البساط المفروش على امتداد المصطبة
تقريباً...

لمح سمر بنت ابن الأحمد وأختها رباباً وهما تقشران حبات البطاطا استعداداً
لإحضار الغداء.

لم يلبث ابن الصالح على حاله طويلاً حتى باغته صوت ابن الأحمد القوي
كالصراخ، وهو ينادي زوجته:

-يا زهوة... يا زهوة...

ردت زهوة من جهة البيت الشرقية، حيث كانت تجمع العيدان اليابسة
لتجعلها وقوداً للنتور في المساء:

-نعم... ماذا تريد؟

-أنا هنا عند الدكان.

-أنا قادمة إليك.

قمطت زهوة رأسها بمنديلها الحريري المرقع، واتجهت مسرعة عبر الدرب
الترابي المؤدي إلى الساقية، فالدكان حيث جلس ابن الأحمد.

صوت سمر ورياب كان مسموعاً بالنسبة لابن الصالح وهو يقطع عيدان
الزيتونات اليابسة. قالت سمر: أنا خائفة يا رباب!..

لم تجبها رباب لأنها لا تعرف أن تجيب، فهي تفهم بقشر البطاطا وحمل

الماء من النبع وشرب الشاي، أما أن تعطي رأياً بالخوف من المستقبل والأيام،
فذلك أمر لا علاقة لها به، ولعلها لم تتعلم في عمرها أية كلمة من هذا القبيل...

رباب عكس سمر تماماً، عاشت سنواتها معزولة عن القراءة والكتابة والدنيا
والآخرة، فهي لا تعرف أبعد من النبع وبيت أبي يوسف... تذهب إلى النبع لتملاً
الجرة ماء، وإلى بيت أبي يوسف لتشتري البيض من أم يوسف، أما سمر فقد
قرأت مع أولاد القرية ونجحت في صفوف الدراسة الأولى، وانتقلت إلى المرحلة
الثانية.

وهي زيادة على ذلك صبية الصبايا، وهي كما تقول عنها أم يوسف: "سمر
سبقت عمرها بجمالها ولباقتها ومعرفتها بشؤون الدنيا، لكن والدها قاسٍ في
طباعه، ولا يعرف الشفقة لا عليها ولا على رباب ولا على بقية إخوتها".

بيت ابن الأحمد محاط بأشجار المشمش والزنلخت ومصطبة بيته واسعة،
لكن قسوته وصرامة ملامحه لا تسعد جليسه، ولا تريح أولاده، ولا تترك لهم أن
يعيشوا كأولاد الجيران.

نهضت سمر ونظرت إلى جهة الدرب لترى إن وصل والدها، فبدت لها
شجرة توت أبي يوسف... ظهرت لها ملء المدى... ولمحت أبا يوسف قادماً من
جهة الساقية الجنوبية حيث أرض وبيت ابن الصبرة وأرض وبيت ابن الصالح...
لمحته يمشي كعادته متمهلاً وفي يده لفافة التبغ المشتعلة...

قالت سمر في سرها: "شجرة التوت تنصدر أفق القرية بأغصانها وعصافيرها
وزهوها وفتنة الجلسة إلى جوارها، وأبو يوسف قامة تزرع الدروب بهجة، ومعاشره
شعوراً بالارتياح. قرب شجرة التوت يلتقي الجيران، ومن أمامها تمر الدروب وأكثر
من هذا هي ذاكرة لا تنسى شيئاً، وعلامة فارقة في تاريخ القرية وأحداثها
وتغيراتها. نادى ابن الصالح بأعلى صوته:

-يا ابن الصبرة.

-نعم يا ابن الصالح.

-ماذا تشتغل عندك؟

-أفلق أرض الزيتون.

أبو يوسف سمع صوت ابن الصالح وابن الصبرة لكنه لم يقف، بل تابع
مشيته المتمهلة باتجاه شجرته ومصطبته وبيته. على بعد أمتار من أرض ابن
الصالح بيت ابن الأحمد وبعده مباشرة الدرب المنطلق باتجاه شجرة أبي يوسف

وبيته... ..

ابن الصالح يعرف سمراً جيداً، ويعرف أنها من الناجحات في الدراسة ويعرف أنها صبية يتمناها أي شاب في القرية. أشجار المشمش والزنلخت والمصطبة تجعل من بيت ابن الأحمد متميزاً في القرية لكن ابن الأحمد قاسٍ... .. وقسوته تذهب بكل جمال.. ..

بقيت سمر واقفة ترقب أبا يوسف وهو يتقدم باتجاه شجرة التوت... .. وقد تمّنت أن تقترب منه وأن تسمع حكاياته عن السفر وعن الأيام... .. وأن تجلس على المصطبة قرب جذع الشجرة الراسخة... .. إنها منذ كبرت وشبّت، أحببت عشرة أبي يوسف وشجرة التوت المجاورة لبيته، ومثلها كل الأولاد وكل الجيران أحبوا عشرة أبي يوسف وشجرته البرية... ..

حمل ولد يوسف بوحمود صاحب الدكان سلة قصبيّه، واتجه شرقاً عبر الدرب المنطلق من أمام بيت كريم... .. نادى ولد كريم:

-يا حسان!

-خرج حسان مسرعاً:

نعم يا سلمان ماذا تريد؟

-ما رأيك بالذهاب إلى شجرات التين؟

-أذهب معك... .. انتظرنى قليلاً... ..

دخل حسان إلى الغرفة الترابية الوسيطة، حمل سلة قصبية صغيرة كانت فوق المصطبة وخرج باتجاه رفيق الطفولة وأيام المدرسة سلمان ولد يوسف بوحمود... ..

مشى سلمان ومن ورائه حسان عبر الدرب الضيق المؤدي إلى زاوية أرض شجرة التوت الشمالية الغربية... .. عند طرف الدرب الضيق القصير المؤدي إلى زاوية أرض التوتة تنتشر بعض أشجار الزنلخت الصغيرة، وبعض شجيرات التوت... ..

قبل أن يصل إلى الزاوية حيث الدرب المؤدي إلى ساحة شجرة التوت، والدروب، لمحا ولد ابن الحمودة، وتمنّى أن يذهب معهما، لكنهما قدراً أنه منشغل برعي البقرة، أو بإصلاح حدائه المنكوب... ..

قال حسان:

-ولد ابن الحمودة مشغول إِمَا برقع حذائه وإِمَا برعي بقرة والده...-

قال سلمان:

معنى كلامك أن لا ننادي عليه ليذهب معنا إلى شجرات التين التي في أرضكم أو أرضنا...

تابع حسان وسلمان السير عبر الدرب حتى بلغا زاوية أرض شجرة التوت، كما سمّتها القرية كلها بنسائها ورجالها وأولادها وبذاكرتها...

الدرب القادم من جهة بيت كريم والد حسان ومن جهة بيت يوسف بوحمود والد سلمان يلتقي عند زاوية أرض شجرة التوت، بالدرب القادم من جهة بيت ابن الحمودة ومن جهة الساقية الشمالية والدكان. سلمان وحسان انعطفا إلى جهة شجرة التوت عبر الدريب الصغير، وبقي الدرب القادم من جهة الساقية وبيت ابن حمودة مقفراً إلا من بعض الطيور التي راحت تبحث عن شيءٍ تنقره إما لتأكله، وإما لتحمله في منقارها لتبني به أعشاشها...

قال حسان: أبو يوسف نائم على الحصير المفروش على مصطبة شجرة التوت، وأم يوسف موجودة في البيت.

-تكون أم يوسف نائمة في البيت على المصطبة الداخلية.

-في هذا اليوم الحار تنام على المصطبة مثل أبي يوسف.

نظر حسان إلى أبي يوسف، وهو نائم وقال:

عينا أبي يوسف النائمتان كم يبدو عليهما التعب يا سلمان...

-هو شقي كثيراً في حياته يا حسان.

-لكنه رغم تعبته القديم في الفلاحة والسفر ورغم فقره فهو لا يمرض، ولا يترك الدخان وشرب الشاي وأكل /القمحية/ المتبلّة باللبن.

عبر حسان وسلمان شجرة التوت وأبا يوسف إلى حيث شجرات التين دون أن يحدثا أية ضجة أو فوضى، حتى إنهما أسرعاً في مشيتهما دون إصدار أية أصوات قوية خشية أن تخافهما العصافير التي على أغصان التوتة، وتطير مسرعة، فتصدر بخفق أجنحتها صوتاً قد يوقظ أبا يوسف ويزعجه...

عندما وصلا إلى شجرة تين أنزلا سلتيهما القصبيتين، وراحا ينظران في جهات الأغصان بحثاً عن الثمرات الناضجة...

قال سلمان:

-انظر إلى ابن الصبرة، إنه يفلح أرضه القريبة من ساقية المراعي... ومعه ولده حمدان...

-حمدان يزيدني سنتين... وأنت كم سنة يزيدك؟؟

-يزيدني سنة ونصف السنة، لكنه لا يزيدني في الدراسة إلا صفاً واحداً... هو في الحادي عشر وأنا في العاشر...

-وسمر بنت ابن الأحمـد كم تزيدك؟؟

-تزيدني سنة فقط، وهي في صف ولد ابن الصبرة.

-لكن من يراها يعجب من أمرها وأمر حسنـها، فهي صارت صبية كبيرة وجميلة.

-وهي تسبق ولد ابن الصبرة بالعلامات... والنجاح.

-وابن الحمودة كم يزيدنا؟؟

-ابن الحمودة يزيدنا أربع سنوات تقريباً وهو الآن في الجامعة...

انقطع حديث سلمان وحسان لأن صوت ابن الأحمـد جاء قوياً ناقماً وهو ينادي سمرًا...

-يا سمر أين أنت؟

-أنا هنا عند أُمي أساعدها بتقريص العجين.

تعالى واغلى الشاي بسرعة.

نظر حسان وسلمان إلى جهة بيت ابن الأحمـد، فألفيا سمرًا تقبل مسرعة باتجاه والدها...

قال حسان:

والد سمر صعب في حياته، وصوته قوي يا سلمان.

-ولا يطعم أولاده من الأكلات التي يحبها.

قالت لي سمر: "تصور يا حسان: أن والدي يضع علبة الحلوة في صندوق الأحذية، ويقفل عليها كي لا نأكل منها... ولا يسمح لأحد منّا أن يشرب الشاي إلا في حضوره، ويضربنا ضرباً قوياً إذا علمَ أن واحداً منّا أكل حبة مشمش واحدة، عن شجرات المشمش دون رغبته وإرادته وأوامره..."

وصلت سمر إلى حيث جلس والدها وابن الحمودة، وهي خائفة أشد الخوف

من أن يضربها لاعتقادها أنها تأخرت في الركض إليه.

قال لها بصوت متوسط القوة:

-أسرعي واغلي لنا إبيريقاً من الشاي.

-قال له ابن الحمودة:

-لا داعي للشاي ولا لغيرها.

كان المساء يحبو كسولاً، وكانت دجاجات أم يوسف تأخذ دريها باتجاه ساحة البيت، حيث نثرت أم يوسف لها بعض حبات القمح وراحت تنادي...

تعاه تعاه... بيتي... بيتي... بيتي...

وكانت الدجاجات تلبى النداء راكضة باتجاه أم يوسف... بعضها ركض عبر الدرب المنسرب بين حفاف أرض التوتة وبين جرن قشر القمح والمصطبة، وبعضها لم ينتظر أن يعبر من هذا الدرب المغطى بأعصان التوتة والمحوط بحفاف الأرض وحفاف المصطبة، بل تراكضت من جهة المصطبة الشرقية، تاركة (مصعها) على المصطبة كهدية رمزية للجيران أو لأم يوسف، التي ستقوم بكنسه...

وكان شعر سمر يتأرجح كغابة سوداء صغيرة مع النسيم وهي تساعد أمها بالخبز، على التور، المجاور لشجرة الزيتون الكبيرة، والقريب من الدرب الواصل بين بيت ابن الأحمد وبيت ابن الحمودة وشجرة وبيت أبي يوسف...

وكانت زوجة ابن الحمودة تسعى في جهات الأرض القريبة من البيت بحثاً عن شيء أضاعته، أو عن طائر سقط من أفق شجرة التوت... في هذا الوقت كان سلمان وحسان ملأاً سلتيهما تيناً، وعادا باتجاه الدرب وشجرة أبي يوسف.

قال سلمان:

ما أشهاها رائحة الخبز الساخن، المخبوز على نار الحطب!!

رد حسان:

-وتزداد رائحته طيباً، إذا كانت سمر ترققه بيديها...

صمت سلمان، وراح يتأمل كلمات حسان، قال في سره: "فعلاً سمر تطيب الخبز إذا رققته بيديها، وتزيده لذة... لكن الذي يحيرني في كلمات حسان... أنها كلمات عميقة وقد يكون قرأ رسالتي التي وضعتها لها في الكتاب منذ أيام..."

قال حسان:

مالك يا سلمان لا تتكلم... ها قد وصلنا إلى تخوم بيت أبي يوسف... وها شجرة التوت خضراء وارفة الأغصان، والعصافير منتشرة في جهاتها... وصوت أبي يوسف مسموع:

-أنت يا بن الصالح قصتك مع زوجتك قصة، تختلف معها على كل شيء...
...
-أنا لا أتحمل ولا أصبر مثلك يا أبا يوسف... سمعته أم يوسف فجاء صوتها كالبارود:

-أنت يا ابن الصالح لا تستحق النعمة... زوجتك خير الزوجات، لكنك أنت لا تشكر...
قال أبو يوسف بصوت خفيض:
-اسكت أحسن من أن تتال حسابك من لسانها...
-لو عرفت أنها مستيقظة لما تكلمت كلمة وحدة عن أموري مع زوجتي...
-وأنا مثلك اعتقدت أنها نائمة، وهي ربما كانت نائمة، لكنها كالخلد تسمع وهي مغمضة عينيها، وخاصة إذا كان الكلام يخصها أو يخص أي واحد من أقربائها...
قطع حديث أبي يوسف وابن الصالح سلام حسان وسلمان:

السلام عليكما:

قالها سلمان وحسان معاً

ورد ابن الصالح وأبو يوسف السلام معاً أيضاً:

-وعليكما السلام

وزاد أبو يوسف:

وطيب الكلام، وتفضلاً بالجلوس قرب ابن الصالح المقدام، الذي لا يضام، إلا من زوجته حين تنام، ومن عمته أم يوسف التي لا ينقطع صوتها كالحمام... وقبل أن يجلسا جيداً، خرج صوت أم يوسف:

-أنت يا أبا يوسف لا تعرف أن تسكت... خاصة وقت يكون ابن الصالح.

فقال لها أبو يوسف: -عندي الآن ابن الصالح، وسلمان ولد صاحب الدكان وحسان ولد كريم اليقظان، ومعهما من التين سلتان ممتلئتان، فهل لك أن تأتي وتأكلي وترجي من صوتك الأنام؟!.

اقترب حسان وسلمان من أبي يوسف، فبدا لهما وجهه المتعب، وبدت تجاعيده، وبدت عيناه الضيقتان، وشفثاه المشقتان وبيده المرهقتان.

قدما له سلتي التين. قال له حسان:

-نتمنى أن تأكل من سلتينا وأن تحكي لنا...

-سأكل بعض الثمرات الناضجة، لأن أسناني لم تعد قادرة مثل أسنانكم على أكل الثمرات الفجة غير الناضجة، وسأحكي لكما ولابن الصالح عن ابن الأحمـد وقصتي معه ومع الطيور والدبق...

ابن الأحمـد منذ شبابه المبكر لا يعرف أن يعيش إلا كما يعيش الآن، يشتري بكل ما يملك ويأكل فيه، وعندما لا يجد شيئاً يأكله، يحمل قضبان الدبق وينتجه إلى أشجار التوت لينشر فيها الدبق، ويمسك العصافير ويذبحها، وينتفها ويطبخها بالزيت ويأكلها وحده لامع أحد من أهل بيته ولا من أهل ضيعته إلا مع من يوافق طبعه طبعهم...

في يوم من أيام بؤسه الشديد وإفلاسه وجوعه، حمل قضبان الدبق واتجه إلى هنا إلى شجرة التوت...

سألته: أراك تحمل قضبان الدبق، معنى ذلك أنك لا تملك ما تشتري به حلوة أو غيرها...؟

-أنت أدري بحالي يا أبا يوسف.

-وما الذي جاء بك إلى هنا، وأنت تعرف أن شجرة التوت هذه بريـة، وعصافيرها أقل من عصافير سواها من الأشجار...

وهل مثلاً جريت طيور أشجار الدلب التي على الساقية؟!..

جربتها مرات عديدة، وكنت لا أوقق كثيراً، في إمساك الطيور، لأن النبع قريب منها، والقادمون إلى النبع لا ينقطعون...

-وهل تعتقد أن القادمين إلى شجرة التوت سينقطعون؟...

-ربما يحالفني الحظ عندك وأمسك ببعض الطيور الكبيرة، فتكون طعاماً شهياً لأخيك ابن الأحمـد...

-سأسمح لك بنشر قضبان دبقك على مضض يا ابن الأحمـد.

-ولماذا على مضض؟؟

-لأنني لا أتمنى أن تقتل عصافير شجرة التوت هذه، فالطير خير وبركة،

وأنا أرتاح للتغريد في الأصباح والهواجر والإمساء...

لكن ابن الأحمد يا ابن الصالح ويا سلمان ويا حسان نفذ رغبته، نزع حذاءه الجلي من قدميه، وتسلق جذع التوتة بصعوبة، وغامر ونشر قضبان الدبق في أنحاء شجرة التوت، ونزل وجلس على المصطبة... لف لفافة دخان عريضة، وأشعلها وراح يعب منها أنفاساً عميقة وينظر إلى القضبان والطيور.

بقيت القضبان منشورة أكثر من ساعتين، لكنها لم تمسك العصافير.. ومن بين الطيور التي كانت في جهات شجرة التوت طائر أخضر الجناحين كبير، بقي طوال الوقت، يخلق في سماء التوتة ويغرد تغريداً بعيداً حزيناً ثم يعود وينظر إلى قضبان الدبق، ومن ثم يخلق ويغرد تغريداً حزيناً...

وعندما ينس ابن الأحمد من قضبان الدبق، تسلق الجذع وجمع القضبان، وانتعل حذاءه وراح محزون البال تعيس الحال، والطائر الكبير أخضر الجناحين حلق بعيداً، واختفى أياماً متتابة، لا يقترب من التوتة، لا نسمع تغريده ولا نرى جناحيه، ويومها قلت لابن الأحمد:

بقضبان دبقك خسرتنا الطائر الكبير وتغريده الحنون وجناحيه الكبيرين الأخضرين.

فرد عليّ يومها ابن الأحمد:

أنت تفسر أمور الطيور وشجرة التوت وكأنها مثل الأنبياء... طول بالك يا أبا يوسف!

غياب الطائر الكبير ليس قضية القضايا...

-لا يا ابن الأحمد... لا تتسرع في إطلاق أحكامك... ولا تجعل من بطنك محط اهتمامك وشغلك الشاغل...

-هل شاهدت، الآليات التي جاءت، وبدأت تسد الساقية الشمالية يا أم يوسف؟

-سمعت أصواتاً قوية وغريبة لكنني لم أعرف ما هي هذه الأصوات، ولا من أين جاءت...

-إنها أصوات الآليات التي تسد الساقية...

دار هذا الحديث السريع بين أم يوسف وزوجة ابن الحمودة، وأصوات

الآليات التي تحفر الساقية وتردم التراب لتجعله سداً في وجه الماء قوية ترج وتمزق هدأة وطمأنينة قرية شجرة التوت ومراعيها وينابيعها كما جاء على لسان ولد ابن الحمودة...

أم يوسف وزوجة ابن الحمودة أخذهما حديث السد الجديد على الساقية الشمالية، وولد ابن الحمودة وابن الصالح وابن الصبرة أيضاً أخذهم الحديث عن أيام الساقية والينابيع وأحمال الحطب، والسد الذي سيحقق وراءه الماء.
سأل ولد ابن الحمودة أبا يوسف:

- ما رأيك أبا يوسف بهذا السد الجديد الذي سيجمع الماء وراءه؟

- هذا السد يا بني أمره عجيب مثل بطن ابن الأحمد...

نظر ابن الصالح وابن الصبرة بدهشة إلى أبي يوسف...

سأل ابن الصبرة:

- ما علاقة السد ببطن ابن الأحمد؟؟

- بطن ابن الأحمد إن امتلأ ارتاح، وإن لم يمتلئ فقصته قصة وغصته غصة، لكنه في أيام كثيرة لا يمتلئ إلا بالطيور المطبوخة بالزيت، التي يحرمنها من أنسها وتغريدها، والسد لا يمتلئ إلا بعد أن يحرمننا من ماء الينابيع وقد تنتشر فيه الأفاعي، وقد يغرق فيه بعض أولادنا...

سمع ابن الصبرة وابن الصالح وولد ابن الحمودة كلمات أبي يوسف، وامتلؤوا بصداها ورنين حروفها، وأخذتهم هواجسهم بعيداً... وخافوا خوفاً شديداً من خراب الينابيع وانتشار الأفاعي...

زوجة ابن الحمودة قالت لأم يوسف:

- أنا غير مطمئنة لهذا السد يا أم يوسف.

- طولي بالك، واطلبي الخير ولا تطلبي الشر.

امتلات القرية بضجيج الآلات وغبار حفرها، وخافت هواجس جيران شجرة التوت... وصارت عيونهم معلقة بجهة بيت أبي يوسف وشجرته.

زوجة ابن الحمودة قالت لأم يوسف:

-صرت لا أتجه إلى أية جهة أو إلى أي بيت قبل أن أعاين شجرة التوت،
خوف أن يصيبها غبار الحفريات.

-أنت مثل أبي يوسف تحسبين لهذه الشجرة حسابات غريبة وعجيبة.

-لا أعرف لماذا أنا متعلقة كثيراً بهذه التوتة، بأغصانها برائحة أوراقها
بالطيور التي تجيء إليها... حين سافر ولدي لم ينس أن يودع أبا يوسف وشجرة
التوت... وقال لي قبل السفر بيوم واحد:

أتمنى يا أمي أن تحدثيني عن شجرة التوت وعن أبي يوسف:

"أنا يا ولدي لا أعرف هذه التوتة إلا كبيرة وواسعة الأغصان، ولم أشاهدها
في يوم من أيام الصيف إلا ممثلة بالطيور، ولم أشاهد مصطبتها إلا مزدحمة
بالجيران... إن لم يكن عند أبي يوسف ابن الصبرة وابن الصالح، يكون عنده ابن
الأحمد ويوسف بوحمود وأبوك..."

أبو يوسف يا ولدي -في شبابه- كان يلقي الرجال ولا يهاب، وكان يجلب
صيده من كف الوحوش، وكانت حالته تعيسة، وكان يركض الليل والنهار وراء
اللحمة ورغيف الخبز، وكانت شجرة التوت يفيء إليها الناس في الصيف وتعطي
الضيعة صورة حسنة.

والدك وابن الصبرة وابن الصالح وابن الأحمد ويوسف بوحمود وكل الجيران
لا يعرفون هذه الضيعة إلا وشجرة التوت موجودة فيها، وأغصانها تملأ الأفق.

ابن الأحمد من أقسى الرجال وأصعبهم، وهو لا يذهب إلى بيت أحد في
القرية، لكنه، يزور شجرة التوت، ويقعد مع أبي يوسف ويسمع أحاديثه وفي الأيام
التي ينزل فيها إلى المدينة لشراء الحاجات، لا يصل إلى بيته إلا بعد أن يرتاح
عند التوتة وأبي يوسف على المصطبة الترابية".

درب ليس واسعاً تحف به أغصان الزيتون والتين يصل بيت ابن الأحمد
ببيت ابن الحمودة وبيت أبي يوسف وبقية البيوت...

انطلق ابن الأحمد عبر درب القرية من خلفه زوجته المصونة، تحمل على
كتفها اليمنى كيساً أبيض مملوءاً بالنفاح وعلب الحلاوة، وبحذاء وشحاطة ذات قد
ومد.

اشتهر ابن الأحمـد بهذه الطريقة الغريبة بالعيش، وبإحضار الحاجات، والاحتفاظ بها. قد يجمع في كيس واحد التفاح والأحذية، وقد يخبئ في صندوقه الخشبي العجيب علبة حلوة وحذاء أتت عليه يد الخراب.. بعد وقفات قصيرة مع الحيران الذين صادفهم ابن الأحمـد وصل إلى مصطبة شجرة أبي يوسف جاره العتيق، ووصلت معه زوجته:

-قال أبو يوسف:

-أهلاً بابن الأحمـد وزوجته المعذبة بأكياسه.

رد ابن الأحمـد:

-هذا قدر من يحبون بطونهم.

-وماذا جلبت اليوم في هذا الكيس؟؟

-جلبت التفاح والحلاوة وحذاء وشحاطة... قال ابن الصبرة:

-ابن الأحمـد لا يعيش إلا على كيفه.

نظرت زوجة ابن الأحمـد إلى ابن الصبرة نظرة عاتبة، وكأنها قالت له

بعينيها:

لماذا لا تعيش أنت مثل ابن الأحمـد بما أنك معجب بحياته وعيشه!؟.

قال أبو يوسف:

-ابن الأحمـد مثل أم يوسف طباعه صعبة، ونفسه قاسية لا تعرف اللين.

قال ابن الصبرة:

-معنى ذلك أن أم يوسف متحكمة بك كيف تشاء.

-لا يابن الصبرة... صدور الرجال أعند من الصخور، فكيف إذا كان واحد

من هؤلاء الرجال هو صاحب شجرة التوت البرية العتيقة!؟!

أنت على حق يا أبا يوسف.

سألت زوجة ابن الأحمـد:

-أين أم يوسف؟

-ذهبت لمشاهدة بنت أخيها زوجة ابن الصالح... قال ابن الأحمـد:

-معنى ذلك أننا لن نشرب الشاي؟

-نشرب الشاي، وإذا أردت نأكل التفاح من كيس ابن الأحمـد. ضحك ابن

الصبرة ضحكاً عالياً ومثله ضحكت زوجة ابن الأحمد، لكن ابتسامه ابن الأحمد
تعثرت بقسوته الدائمة، وعادت إلى مخبئها خائبة.

قال ابن الأحمد:

-فكي الكيس يا زهوة واطعمي أبا يوسف وابن الصيرة من التفاحات.
-وأنا وأنت؟

-من نسي بطنه أضمر نفسه...

فكّت زوجة ابن الأحمد الكيس، وأخذت بعض التفاحات واتجهت إلى الجرة
الكبيرة المستندة إلى حائط الساحة... غسلتها وعادت بها إلى الجالسين.

أرض ابن الأحمد متاخمة لأرض كريم والد حسان من جهة، ولأرض يوسف
بوحمود من جهة أخرى وقد سيجها ابن الأحمد بسياج من العيدان والحطب،
وجعل للسياج أبواباً خشبية يسيرة يمكنه أن يدخل ويخرج منها...

سمر وسلمان ولد بوحمود جلسا على المصطبة، دون أن يعطيا لجلستهما
أي مظهر يوحى بالحب... سمر رغم أن سنهما يقارب سن سلمان نضجت أنوثتها
وتفتحت روحها على أنسام الحياة والهوى أكثر من سلمان... وصارت مبعث
دهشة ولهفة وهيام سلمان، فصار يراها في نومه، ويناديها بأوصاف يتمنى لو
يجرؤ على لفظها في يقظته... حتى في الرسالة التي بعثها لها، لم يجرؤ على
كتابة أية كلمة من تلك الكلمات التي يمتلئ فمه وصوته بها أثناء نومه... وسمر
تعرف تمام المعرفة ما يختزنه في صدره من حب لها، وهي تشعر بالحب له
وبالارتياح.

جلس سلمان على طرف البساط بعيداً عن سمر....

قال سلمان:

-هنيئاً لك يا سمر... الجميع يحبونك...

لم تجبه بأية كلمة، مما جعل وجنتيه تزدادان احمراراً... بقي سلمان على
جلسته، وسمر بقيت ملتمة على نفسها، رأسها على ركبتيها وشعرها الأسود
الطويل تدلى فأخفى كامل وجهها كقمر وضاء أخفاه الليل.

من بعيد نادى رباب:

-يا سمر يا سمر.

-نهضت سمر خائفة وأسرعت إلى جهة سلمان وقالت له بصوت منخفض:

-والذي صار بين أشجار المشمش... اخرج من جهة أرض ابن الصالح.

* * *

بيت ابن الأحمد والدرب المؤدي إليه يوحيان بأن ساكنه يخلو من القسوة،
لكن الحال على خلاف ذلك، فنفس ابن الأحمد... معذبة مطعونة، وروحه
مزدحمة بالشقاء والتعاسة، وهذا ما جعله يميل إلى العزلة والقسوة وظلم أولاده...
ويبدو أنه ورث النكد والفقر والطباع السيئة من دنيا غنية بهذه الحاجات.
الدرب الواصل بين بيته وبيت أبي يوسف درب متميز، أنفق أياماً في
هندسته، واقتلاع أشواكه حتى غدا خالياً من الشوك، حنوناً تحيط به الأغصان.
أبو يوسف في أيام نادرة، يزور ابن الأحمد... يترك مصطبة التوت وينطلق
باتجاه بيت ابن الأحمد.

من بعيد نظر سلمان إلى بيت ابن الأحمد فألقى سمرًا منشغلة بغسل
الصحون وألقى رباباً قد حملت الجرة وانطلقت إلى نبع ساقية المراعي حيث
الدلباب، ونظر إلى بيت أبي يوسف فألقى أبا يوسف يمشي وتبدأ باتجاه المساء
وبيوت الجيران، وألقى بيت ابن الحمودة المجاور لبيت أبي يوسف يغرق شيئاً
فشيئاً في غبش المساء.

قالت سمر في نفسها:

"لو نجلس أنا وسلمان عند أبي يوسف... ونسمع أحاديثه، ونعاين وجهه
وملامحه ونمئلي بصوته ورائحة شجرة التوت ومساءاتها"...
كم أتمنى أن يهرب بي المساء إلى مصطبة أبي يوسف وشجرة التوت،
فأستريح من قسوة والدي وغضبه"...

ينس أخيراً سلمان من أن يعود ثانية إلى حيث سمر أمام البيت، وصوت
والدها ينشر الخوف في أرجاء نفسها، واتجه غرباً إلى جهة بيت أبي يوسف، ومنه
إلى حيث يشاء. شاهدت سمر سلماناً وهو يمشي متحيراً باتجاه بيت أبي يوسف
وشجرة التوت... وشاهدت البيوت وهي تغرق في ظلمة العشاء، وبقي صوت
والدها ينشر الخوف حولها كسياج من الأشواك متين...

أصوات قليلة بقيت تخرج من أنفاس ليل قرية شجرة التوت... وبقيت سمر
تسمعها وترى الطيور وهي تتجه مسرعة إلى أعشاشها...
قالت لأمها وهي تتجه إلى المصطبة:

- ألم تري بيت أبي يوسف إنه لا يختفي في الليل، لأن شجرة التوت تبقى
واضحة وضوء سراجها يبقى متوهجاً... وصوت أبي يوسف يبقى مسموعاً.
- أبو يوسف وشجرة التوت من أقدم الذين عاشوا في قريتنا يا سمر... وأنا
أعرف أبا يوسف... إنه أحسن من أم يوسف بألف مرة.
- كادت سمر تضحك لكنها كتمت ضحكتها، خوف أن يسمعها والدها وهي
تضحك فيطلق صوته عبر الأفق فيذهب بهجة حديثها مع أمها عن أبي يوسف.
قالت أمها:

هل شاهدت أم يوسف وهي تلم البيض أو وهي تصف حاجات الناس... إنها
تسبب البلوى بين الناس... إنها يوم تزورنا تسبب لي الشقاء، لأنها تصف أشياءنا
بأنها لا نفع منها، وتقول لوالدك: ما هذا البساط؟... لماذا أخطأت زوجتك بشبكة،
وما هذه الطراحة، وما هذه المخدة؟.. وتبقى تسأل حتى تسبب الخلاف بيني وبين
والدك.

* * *

- هل نجحت سمر في صفها يا سلمان؟.
- سمر لا ترسب في أي صف من صفوف المدرسة، ولولا قسوة والدها
لكانت الأولى في المدرسة يا حسان.
- وأنت ألم تتجح؟
- حتى الآن لم تظهر نتائج امتحاناتنا.
دار هذا الحديث بين حسان وسلمان وهما يتقدمان من جهة السد باتجاه
بيوت القرية. بيت سمر هو أول بيت يظهر للقادم من جهة السد.. قال حسان:
هاقد وصلنا إلى جهة بيت ابن الأحمد لكن سمرًا ليست موجودة على
المصطبة يا سلمان!؟.

تكون ذهبت لزيارة أختها التي في المدينة.
أختها الكبيرة جوهرة؟؟

- هكذا قالت لي في الأمس... قالت لي: سأزور أختي الكبيرة جوهره وربما أنام عندها إذا سمح لي والدي.

أنا لم أشاهد أختها جوهره إلا مرتين، مرة كانت تزوركم ومرة كانت تزور أم يوسف...

- هل سمعت أوصاف أم يوسف لها عندما تزورها وتحضر لها المأكولات والثياب؟

- لا لم أسمعها.

أنا سمعتها مرة وهي تحكي لزوجة ابن الحمودة. كنت جالسا عند أبي يوسف تحت أغصان التوتة وكانت أم يوسف وزوجة ابن الحمودة جالستين في البيت، قرب العمود الكبير.... يومها قالت أم يوسف لزوجة ابن الحمودة: ضيع ابن الأحمد بقسوته بناته: جوهره من أجمل البنات لكنها هربت من والدها وتزوجت رجلاً معمرًا، ليجمها ويؤمن لها مصاريفها، وبقيت فترة طويلة لا تزور القرية، ثم سمح لها والدها بزيارة البيت.

وأنت يا سلمان ألا تخاف على سمر من أن تضيع مثل جوهره؟

أطرق سلمان إطراقة المحاصر بالأسى والخيبة ولم يتكلم.

قال حسان:

انظر إلى شجرة أبي يوسف إنها تفرش أغصانها فوق المصطبة وسطح البيت وفوق الدرب، وتكاد أن تصل إلى شجرات التين التي في أرضنا.

والأكثر من هذا أنها تجمع الجيران وتلم البعيدين منهم والقريبين.

أتصور أن أغصانها ستصل ذات يوم إلى جدار بيت ابن الحمودة الجنوبي.

نحن نذكر شجرة التوت وأبا يوسف وبيت ابن الحمودة، وزوجة ابن الحمودة عند أم يوسف تحت التوتة.

نظر سلمان إلى جهة التوتة فظهرت له زوجة ابن الحمودة بخمارها الضارب إلى السواد وظهر منديل أم يوسف وقد قمطت رأسها به بطريقة هندسية متداخلة، لا يدركها إلا أم يوسف وبعض نساء القرية، وظهرت الدجاجات تسرح في ساحة البيت بحثاً عن حبات القمح، والجرة الكبيرة المستندة إلى حائط الساحة الغربي.

قالت أم يوسف:

رائحة ماء هذا السد لا تريح البال...

-أنا مثلك أشم رائحة سيئة تجيء من جهته...
قالت لي زوجة ابن الأحمد إنها رأت فيه أفاعي سوداء.
-ماذا يمكننا أن نفعل مع السد والأفاعي إلا الحذر والخوف من القدر؟!
لم تكمل أم يوسف وزوجة ابن الحمودة حديثهما لأن صوت ابن الحمودة قطع عليهما متابعة الكلام إذ نادى زوجته...
-أنا سأذهب يا أم يوسف، لأن ابن الحمودة يكون جائعاً أو يكون معه ضيوف... زمت أم يوسف شفيتها ونطقت كلمة أو أكثر في وداع زوجة ابن الحمودة، وعادت إلى جلستها... مدت يدها إلى منديلها، لتتأكد من سلامة ربطته... ثم انحرفت قليلاً باتجاه ساحة البيت لتعاين واقع حال الدجاجات.
صوت ابن الأحمد أفرع أم يوسف، ومشيت عبر دريب البيت المحاط بجذع التوتة وحفاف المصطبة وحفاف الأرض، وانطلقت عبر الدرب المتجه شرقاً... لتخبر زهوة بخبر وصول ابن الأحمد إلى الساقية...
وقفت أم يوسف عند طرف البيت الشرقي فلمحت زهوة خارجة من باب السياج الخشبي... قالت في نفسها: سمعت زهوة صوت ابن الأحمد... وهل يبقى أحد في القرية لا يسمع صوته إذا نادى...

* * *

وجود شجرة التوت في القرية علامة خير لكل الجيران، تحت أغصانها يجتمعون، يحكون حكايات حياتهم... ويشربون الشاي وماء النبع البارد... شجرة التوت البرية ليست شجرة عادية. تتبدى للناس في حالات مختلفة، ولكل حالة دلالة بعيدة ووقع عميق في القرية... إن بدت خضراء، فذلك دلالة خير وإن بدت شاحبة ذابلة فذلك نذير سوء...

ابن الصبرة نظر إليها من أرضه المجاورة للساقية فألقى أغصانها ذابلة.
قال لزوجته:

-يا أم محمود... أنا خائف هذا اليوم.
-لماذا أنت خائف... البقرات بخير والدجاجات لم يصبها مرض الخناق...
وشجرات الزيتون جيدة الحمل هذا العام؟

- لا أدري ما سبب خوفي... منذ شاهدت شجرة أبي يوسف ذابلة؟!..

- طول بالك يا أبا محمود واحمد حظك ودينياك.

بيت ابن الصبرة يشرف على الساقية القادمة من المراعي، ومن أمام مصطبه يمر الدرب المنطلق من الساقية إلى بيت ابن الصالح وبقية البيوت القريبة...

جلس ابن الصبرة على المصطبة، وأسند رأسه إلى وسادة عالية، بينما أم محمود ذهبت بالبقرات إلى الساقية لتسقيها...

فكّت حبال البقرات من شجرات التوت والزنزلخت وأطلقت لها العنان شرقاً نحو نبع الساقية... تذكرت كلمات زوجها عن شجرة التوت وأبي يوسف "أنا خائف يا أم محمود من ذبول أغصان التوتة".

نظرت أم محمود إلى جهة بيت أبي يوسف فلمحت أبا يوسف قادماً باتجاه المصطبة، ولمحت زوجة ابن الحمودة قرب الدرب، ولمحت أم يوسف وهي تميل ميلاتها المعهودة وسمعت صوتها تنادي الدجاجات:

تعاه... تعاه... تعاه...

بوزهره... بوزهره... بوزهره...

وسمعت صوت زهوة زوجة ابن الأحمد وصوت بنتها سمر ورأت ابن الأحمد وهو يخرج من باب السياج الخشبي ويتجه غرباً إلى مصطبة أبي يوسف... شجرة توت أبي يوسف تظهر جيداً لكل الجيران، ويظهر الجالسون على مصطبتها، وتظهر الدجاجات التي تسرح في ساحة البيت إلى جوارها، لأن أرضها مرتفعة ومشرفة على البيوت والكروم... أم محمود شاقها أن تسقي البقرات، وتربطها وتنطلق بعد ذلك إلى مصطبة شجرة التوت وتقتشر بعض القمح في الجرن، وتسمع أحاديث القرية وتطمئن إلى سلامة حال شجرة التوت.

غفا ابن الصبرة غفوة سريعة، لكنها قلقة ومزعجة، إذا ازدحمت رأسه بالرؤى المخيفة... رأى نفسه وسط المرعى ومعه بقراته، وإذا بوحش يهجم عليه وعلى بقراته، ولولا أنه رأى أبا يوسف مصادفة لقتله الوحش وقتل بقراته.

استيقظ خائفاً، نظر حوله ونظر إلى البقرات، فلم يجدها، فاعتقد أنها سرقت أو قتلت، لكنه اطمأن عندما رأى أم محمود تعود بها من الساقية.

أسند ابن الأحمد ظهره إلى الحائط، بعد أن وضع لفافة الدخان العريضة في

فمه... قَطَّبَ حاجبيه وقال:

-هل تعلم يا أبا يوسف أن رائحة السد قاسية جداً؟!

رد ابن الحمودة مؤكداً:

-فعلاً رائحة سيئة وصعبة المعاشرة كما يقول ابن الأحمد.

قال أبو يوسف:

-هذا قدر حلّ بقريتنا.

نظر ابن الأحمد إلى جهة الساحة، فرأى بعض دجاجات أم يوسف تسرح في جهات الساحة. نحنحة الحمامات والأفراخ في أعشاشها فوق العتبة كانت تؤنس صمت الجالسين، وتعطي الهاجرة تحت أغصان شجرة التوت نكهة حنونة.

قال ابن الحمودة:

في الليل الفأنت سمعت صوتك وخفت من أن تكون غضبت على بنتك سمر، وفكرت بأن أدق الباب على أبي يوسف من أجل ذلك.

-لا لم أكن غاضباً على سمر ولا على زهوة... بل كنت غاضباً على

/بوزهره/.

قال ابن الحمودة مندهشاً:

اوف اوف اوف... من شر /بوزهره)... إنه لعنة لا تنتهي.

منذ يومين وأنا أمشي قرب الساقية والمراعي لمحت عدداً من /بوزهره) وخفت على دجاجات أم يوسف يومها وخفت على دجاجات كل الجيران، ويومها عدت مسرعاً إلى البيت لأطمئن على حال الدجاجات. ابن الأحمد نأى بهواجسه عن أبي يوسف وابن الحمودة، عاد إلى كلمات ابن الحمودة: "خفت من أن تكون غاضباً على سمر" وقال في سره: "وماذا يعني ابن الحمودة أغضبت أم لم أغضب على سمر... وما علاقته بذلك؟؟.. وهل يعقل أن غضبي على أولادي صار حكاية الجيران!!".

مد ابن الحمودة يده إلى علبة دخان أبي يوسف، أخذ منها ورقة بيضاء ناعمة الملمس، وملاها بالدخان ولفها، وجعلها بين شفتيه، وأشعلها... سحب منها نفساً عميقاً، ثم حرك عجزته لتستقيم جلسته على حصير المصطبة:

نظر إلى أرض شجرة التوت المزروعة بالتبغ:

-دخان أرضك قليل يا أبا يوسف!

-أنا وأم يوسف يكفيننا أي شيء..

-ابن الأحمد لم يزرع هذه السنة إلا البندورة...

قال أبو يوسف:

-شجرات مشمش ابن الأحمد ترد عليه بموسمها هذه السنة ما يكفيه ويكفي زوجته والأولاد.

قال ابن الحمودة:

-أنا سمعت من أم يوسف أن جوهرة بنتك الكبيرة ستأخذ سمراً لتدرس عندها في المدينة؟!.

-يا ابن الحمودة... أعطني علبه دخانك، لألف سيكارة، واسترح من قصة سمر وجوهرة وغضبي.

-تفضل... جرب دخان علبتي.

قدّم ابن الحمودة علبه دخانه... وسكت... لأن كلمات ابن الأحمد جاءت قاسية عليه فأسكته... لم تستمر جلسة ابن الأحمد وابن الحمودة عند أبي يوسف هائلة مطمئنة، لأن صوت ابن الصبرة جاء قوياً ومباغتاً ومعذباً:

ثعلب/ بوزهره/ قتل نصف دجاجاتنا.

أقبل الصبح ثقيلاً حاراً، وشجرات مشمش ابن الأحمد أثقلها اصفرار ثمارها... فراحت تتساقط بفعل الحر الشديد.

جمعت سمر ثيابها القليلة في حقيبة سوداء صغيرة، وارتدت ثوبها الزهري فبدت بهية نضرة، وسرحت شعرها الطويل فكاد يصل إلى عجزتها...

قالت لوالدها:

-أنا ذاهبة... ماذا توصيني؟

-خذي معك سلة المشمش لأختك جوهرة، وارجعي بعد أسبوع إلينا...

شاهدت قرية شجرة التوت سمراً وهي تخرج من باب السياج الخشبي وفي يديها سلة مملوءة بالمشمش وحقيبة جمعت ثيابها بها... نسيت سمر أن تودع أبا

يوسف وشجرة التوت، حتى إنّ أم يوسف قالت لزهوة عندما علمت بعد يومين
بذهاب سمر:

-تمنيت أن تمر سمر عليّ، لأعطيها البيضات التي جمعتها لتأخذها
لجوهرة.

-سترجع إلى البيت بعد أيام معدودة.

-أبو يوسف ليس هنا اليوم أين هو؟؟.

-قد يكون ذهب إلى دكان بوحمود أو يكون قصد بيوت الأولاد في
المدينة... ليستطلع أخبارهم.

أولاد أبي يوسف عاشوا في البيت الترابي، حتى كبروا، وسارت أمورهم على
ما يرام، وتزوجوا، فتركوا البيت الترابي، وسكنوا بيوتاً أو غرفاً ضيقة في المدينة
نزولاً عند رغبة زوجاتهم... المصونات... لكن أبا يوسف منذ البدء أكد لهم أنه
لن يترك شجرة التوت والمصطبة والبيت الترابي... وهو غني عن بيوتهم وعيشهم
في المدينة...

عادت أم يوسف إلى انشغالها بإطعام الدجاجات... وبالبحث عن أفراخ
الحمام: فهي موجودة في أعشاشها أو طارت في أرجاء البيت، أو أن أبا يوسف
ذبح بعضها وأطعمه لجيرانه، أو أخذه دون معرفتها لأولاده في المدينة؟.

زهوة زوجة ابن الأحمد جلست على المصطبة وأسندت ظهرها إلى جذع
التوتة... لكنها لم تبقى وحيدة لأن زوجة ابن الحمودة وصلت...

-شايفتك هنا اليوم... ابن الأحمد ليس في البيت.

-ابن الأحمد في المدينة يشتري بعض الأغراض والحاجات.

-قال لي ابن الحمودة: إن سمراً ذهبت إلى بيت أختها جوهرة!.

-ذهبت من يومين وستعود بعد أيام.

جوهرة لم تأخذ سمراً من أجل الدراسة... بل من أجل أمر آخر رتبته في
ذهنها جيداً... وسلسلت أحداثه قبل حدوثها...

الحياة علّمت جوهرة أن الغيوم لا تمطر إلا في الفصول الغنية بالمواسم،
وعلمتها أن العيش في بيت والدها أمرٌ من الشقاء، وأن المرأة الجميلة يجب أن
تتزوج رجلاً غنياً لينفق عليها كما تشاء...

منذ اليوم الأول قالت لسمر:

-اهتمي بنفسك جيداً... واشترت لها بعض الثياب، وحاولت أن تشعرها بأن الحياة في المدينة نعمة لا بعدها ولا قبلها... لكن روح سمر لم تستطع أن تعشق المدينة بسرعة، وبقيت شجرة التوت تشدها بألف خيط... وبقي أبو يوسف وحكاياته وأيامه ملء خيالها...

في اليوم الثالث سألت جوهرة أختها:

كيف ترين الحياة هنا يا سمر؟؟ ألم تفرحي بحياتنا في المدينة؟؟.

صمتت سمر... ولم تجب حتى بالإشارات...

-عادت جوهرة وسألتها:

-مالك ساكنة هكذا... قللي لي، ألم تعجبك حياتي؟؟.

-لا أعرف يا جوهرة إن كانت حياتك تعجبني أو لا تعجبني، أنا الآن أتمنى أن أعود إلى القرية.

-أنت لا تعرفين الحياة ولا تعرفين كيف يعيش الناس.

-أنا الآن أفكر في حياة قريتنا، وأذكر أبا يوسف وشجرة التوت، وأتمنى لو أنني ودّعت أم يوسف وكل الجيران... أنا خائفة يا جوهرة...
-من ماذا خائفة؟؟.

-لا أعرف... لكنني أتمنى لو أنني جلست عند أبي يوسف وسمعت حكاياته قبل أن أجيء إلى عندك. سكتت جوهرة، ولم تضيف أية كلمة، لأنها تعرف أبا يوسف، وتعرف شجرة التوت الواسعة التي أمام بيته، وتعرف أم يوسف وتزورها كلما قصدت القرية، لكنها لم تألفه ولم تتعلق به كما تعلقت به سمر... قالت في نفسها:

"أبو يوسف فعلاً- عجوز حنون، عشرته حنونة، وشجرته حنونة، لكن الزواج من الأغنياء يخلص المرأة من الحاجة".

عادت سمر إلى الحديث:

أنت يا جوهرة غبت عن القرية منذ سنوات طويلة، وقد تكونين نسيت أبا يوسف وشجرة التوت، أمّا أنا فلم أنسَ لا أبا يوسف ولا شجرة التوت... أنا أتمنى أن أجلس عند أبي يوسف يوماً كاملاً، استمع له وهو يحكي عن أيامه وشغله، وسفره وفلاحته، وعن أم يوسف وأيامها معه، وعن الينابيع والأشجار والطيور.

أبو يوسف إلى اليوم يخبئ البيضات عن أم يوسف ويعطيها للأولاد،
ويعطيهم الفرنكات... ويجلسهم على مصطبته في الهواجر والمساءات...

إنه يشبه نبع الساقية عندما يتدفق في الصيف... وليت أبي مثله... ليته
يكون رحيماً بنا، ليته لم يشردنا كأوراق غصن يابس... ليته كان كأبي يوسف،
وليت أشجارنا كشجرته، لكان رحماً من البؤس والضياع والعار...

قالت جوهرة بحسرة:

-آه يا سمر... أراك كبرت بسرعة، وأراك تفهمت وضع حياتنا مع والدنا
بشكل جيد... المدرسة علمتك ونفعتك...

كان البحر لطيفاً كأطفال يلعبون مع الريح، وكانت رائحة ذكريات قرية شجرة
التوت ملء أنفاس جوهرة وسمر... وكان الصيف مزدحماً بالناس والمساء، لكن
سماً وجوهرة بقيتا في دنيا شجرة التوت وأبي يوسف وأيام العيش المريرة... عادت
جوهرة إلى حديثها:

أنت يا سمر تعلمت في المدرسة، ونجحت، أما أنا فلم أقرب من المدرسة،
ولم أحمل دفترًا أو كتاباً في حياتي... أيامي مع والدي كانت أقسى من أيامك
ويومها كانت شجرة التوت وكان بيت أبي يوسف، لكن أبا يوسف كان مسافراً...
مرت علي أيام وليال لم أجرؤ على النوم في البيت خوفاً من والدي، كنت أحاول
الذهاب إلى بيت أبي يوسف لأنام عند أم يوسف، لكن أم يوسف ليست كأبي
يوسف، لتحميني وتساعدني... أذكر إلى اليوم أنني في يوم من أيام البرد والمطر
خفت من والدي، فلم أرجع إلى البيت، وذلك لأمر بسيط يتعلق بسلة مشمش...
في الليل ذهبت إلى عند أم يوسف، كانت وحيدة في البيت... نمت عندها على
المصطبة الداخلية، لكنها في اليوم الثاني ذهبت إلى والدي وراحت تتصحه
وتحضه على ضربي وإزعاجي وطردي من البيت...

قالت سمر:

-حياتنا مع والدي صعبة يا جوهرة... لكنك أنت أخذت أكبر نصيب من
عذاب العيش معه.

عادت جوهرة إلى الحديث:

-تصوري يا سمر رغم أن أم يوسف كانت توصي والدي وتتصحه بأن
يضرني ويطردي فقد أزورها وأحمل لها الأغراض، ليس من أجلها، بل من أجل
شجرة التوت وأبي يوسف...

-أنا مثلك أطمئن بالجلسة على مصطبة شجرة التوت، وبالاستماع إلى أحاديث أبي يوسف...

قالت سمر:

أنا أذكرك وأذكر تعذيب والدي لك، وأذكر يوم تركت البيت وغيت، وراحت أم يوسف تسأل عنك وتبحث، لكنها لم تجد لك أثراً... وأخيراً سمعت أنك تزوجت في المدينة...

-تعرفت إلى زوجي مصادفة، فأعجبته وطلب مني الزواج، وقبلت دون سؤال أو جواب لأنني كنت دون بيت، كنت كغصن مقطوع من شجرة لا أرض لي ولا دار ولا أهل ولا أحد...

وزوجي ليس عظيماً أو رجلاً بكل معنى الكلمة، لكنه يحترمني، ولا يتركني محتاجة لشيء... سكتت سمر. لم تتكلم، أخذتها هواجسها إلى حيث شجرة التوت وسرحت بها في دروب القرية ومررت بها على البيوت والساقية وبيت ابن الصيرة، وابن يوسف بوحمود... تساءلت في نفسها: سلمان هل يمكنه أن يتزوج الآن؟ وهل يمكنه أن يؤمن لي حاجاتي؟ إنه شاب... وحبيب... لكن الحب عند والدي يموت، وتذوي أغصانه... وتنتهي حياته سريعاً...

قطعت جوهرة على سمر رحلة تأملاتها:

-بماذا تفكرين الآن؟..

-بالعودة إلى القرية.

-لماذا... للعيش مع الشقاء والغضب والفقير؟

-معك حق يا جوهرة... لكنني أحب القرية وشجرة التوت وأبا يوسف، أشعر دائماً بأنها علامة خير وحياة لكل القرية... أراها أحياناً في نومي... أخاف عليها من الرياح القوية ومن العطش الشديد، وأتمنى أن أزورها وأجلس قريبا كل يوم...
-أنا معك في أن تزوري شجرة التوت وأبا يوسف، لكن ما رأيك في الزواج؟

-أوف... أوف... ما أتعس الحياة وأضيقها لا... لا... أنا الآن لا أفكر بالزواج.

-بماذا تفكرين إذن؟

-لا يوجد تفكير الآن بالزواج... أفكر بالدراسة... وبأمي وبالجيران...

الزواج لم أفكر به حتى اليوم...

-ادرسى عندي، وعيشى عندي، وعندما تنتهي الدراسة تفكرين بالزواج... ما رأيك؟

صمتت سمر... أخذتها ريح التذكر والتأمل وابتعدت بها عن أختها: هل يعقل أنني أفكر بالزواج؟ والدراسة التي حلمت بها طويلاً... وكلمات أبي يوسف: "أنت يا سمر من الجيدات في القراءة والحفظ، وقد وهبتك الدنيا جمالاً وحسناً... لكن والدك صعب والعيش معه مر، وأنا أخاف عليك من غضب والدك".

* * *

زوجة ابن الحمودة بعد أن أنهت عملها في البيت والأرض المجاورة للبيت... فكرت بأن تذهب إلى بيت أبي يوسف، لتجلس عند أم يوسف، وتستطلع منها أحوال الناس والدنيا... لكنها ما أن أسندت ظهرها إلى حائط البيت حتى غفت، ولم يوقظها إلا صوت ولدها العائد من المدينة حيث يدرس:

-أمي... أمي... أمي... مالك تتكلمين وأنت نائمة؟

-بارك الله بك يا ولدي... لأنك أرحتني من حلم مخيف وصعب...

-فعلاً... كنت تتنفسين تنفساً ضيقاً، وتتكلمين كلاماً غير مفهوم... وتحاولين أن تصرخي، فلم تستطعي... ما هو هذا الحلم الصعب يا أمي؟

-إنساني أن أسألك عن نفسك وأمور دراستك.

-قولي ما هو؟

-صدقني يا ولدي أنني شاهدت شجرة التوت تهوي، نقتلعها ريح قوية. وتهدم بيت أبي يوسف... ورأيت الجيران يحاولون أن يوقفوا انهدام البيت أو يسندوا جذع التوتة، أو أن يحضروا الألفحة ليمنعوا البرد عن أبي يوسف...

تصورت نفسي مع الجيران... أحاول أن أساعد أم يوسف... لتجمع الدجاجات، وتحميها من المطر... وكثيراً يا بني حاولت أن أنادي الناس ليأتوا... وأن أدعو للتوتة بالبقاء ولأبي يوسف وبيته بالخير والدوام، لكنني كنت لا أستطيع، كما رأيته أنت حين وصلت وأنا نائمة.

نظر ولد ابن الحمودة إلى أمه فوجدها مبللة بالعرق وخائفة إلى حد بعيد...

ووجدها تنظر إلى جهة شجرة التوت بلهفة وشوق، وكأنها لم ترها منذ سنة أو أكثر... ونظر إلى جهة شجرة التوت، فرأها تتسع في الأفق، وتمتد في الجهات ورأى الطيور تسعى إليها، وقد استوقفه الطائر الأخضر الجناحين الكبير الذي خاف من قضبان دبق ابن الأحمد وانقطع أياماً على أثر ذلك، لا يزور التوتة، ثم عاد إلى أفقها وأغصانها وإلى تغريده حتى إن ولد ابن الحمودة مطّ رقبتة قليلاً فباننت له مصطبة التوتة، وبان عليها ابن الأحمد وابن الصبرة وابن الصالح وأبو يوسف، وحديثهم كان مسموعاً:

- هل تعلم يا أبا يوسف أنني كلما نظرت إلى أرض النبع أحزن.
-أنت على حق يا ابن الأحمد، في أن تحزن على أرض والدك وأرضك من بعده التي سلبها ابن الحسن منك بالحيلة والمكر والنفاق والرشوة.

قال ابن الصالح:

-أنا أذكر منذ سنوات بعيدة وكنت حينها طفلاً، أذكر والدك يا ابن الأحمد، وأذكر الكوخ القصي، الذي كان مبنياً في أعلى الأرض.

ردّ ابن الصبرة:

-معنى ذلك أنك كنت صغيراً يا ابن الصالح لأن والد ابن الأحمد منذ سنين طويلة غاب...

قال أبو يوسف:

-والد ابن الأحمد من العتيقين في قرينتنا، وكان كريماً ويحب عشرة الطيور وصيدها، وقد بنى منذ بدأ يزرع أرض النبع كوخاً من القصب، وكان يستريح فيه، وفي أيام التين ينام فيه.

قال ابن الصبرة:

-مرة "ركض ورائي ووراء ابن الحمودة ووراء يوسف بوحمود، لأننا مررنا من قرب دلبة الساقية الكبيرة، ورفعنا أصواتنا، ففر طائر كبير كان قضيب الدبق أمسك به".

عاد أبو يوسف إلى الحديث:

-عادة ابن الأحمد في إمساك العصافير بالدبق ورثها عن والده.

سأل ابن الصبرة:

-وعادة الغضب على أولاده والانعزال عن الجيران من أين جاءت؟

-إنها نعمة الفقر تجر على الإنسان الشقاء والغضب والتعاسة... ولا ننسى يا ابن الصبرة أن أرض ابن الأحمد أخذت منه بالقوة، ولم يستطع إعادتها... صمت ابن الصبرة ومثله ابن الصالح... قال ابن الصبرة في سره: "أبو يوسف يعرف أسرار الأمور ويفسرها... كيف غاب عني أن ابن الأحمد أخذت أرضه التي ورثها عن والده؟"

* * *

الجرن كان فارغاً من القمح، والدجاجات في ظل أغصان التوتة... وصلت رباب إلى أول دريب البيت، واتجهت عبره باتجاه الساحة، لم تسمع أي صوت، ولم ترَ أحداً على مصطبة البيت... فقدّرت: أم يوسف عند زوجة ابن الحمودة، لكنها قبل أن تفكر بالذهاب إلى بيت ابن الحمودة بحثاً عن أم يوسف جاءها صوتها من الداخل:

-من أنت... سمعت خطوك؟؟

سمعت خطوات رباب لكنها لم ترها...

ردت رباب بسرعة:

-أنا رباب...

اتكأت أم يوسف على يدها اليمنى ونهضت حتى استوت قاعدة على المصطبة قرب العمود، مسحت وجهها بكلتا يديها، وشدت مندبيلها... ونظرت إلى جهات البيت بحثاً عن الحمامات والأفراخ... ونادت:

-ماذا تريدان يا رباب:

-أريد أن أشتري بعض البيضات لوالدي...

-تعالى... ادخلي...

دخلت رباب بثوبها الباهت وبنطلونها القصير قليلاً، حتى يظن من يراها لأول مرة أنها شمّرتة لتتفادى تلوّثه بالغبار أو بسواه...

قالت أم يوسف لها منذ رأتها بباب البيت:

-هل جلبت من والدك ثمن البيضات التي ستأخذينها... قولي بصراحة...

ولا تحاولي أن تخبئي عني، فينالك حسابك من والدك، وأنا سأخذ كامل ثمن
البيضات قرشاً قرشاً...

* * *

وهج الهاجرة كان قاسياً، ورائحة ماء السد لم تسعد أنفاس ولد ابن الحمودة
وسلمان وحسان... ولا أنفاس سمر التي جلست على مصطبة البيت في ظلال
شجرات المشمش هرباً من لهيب الهاجرة.

نظر سلمان إلى بيت ابن الأحمد، فلمح رباباً تفتح باب السياج الخشبي،
وتخرج.. فقدّر أنها قادمة إلى أم يوسف لشراء البيض...

سأل حسان ولد ابن الحمودة:

- هل أنهيت دراستك في الجامعة؟؟

- بعد شهرين أو ثلاثة أنهى آخر الفصول في الجامعة.

- وبعد أن تنتهي من الجامعة ماذا ستعمل؟

- علمها عند القائمين على الأمور والقاعدين عليها، وقد تعلم ذلك شجرة أبي

يوسف، فهي أدري بالأمر. وأنت وسلمان في أية سنة صرتما في الدراسة؟؟

- أنا صرت في الجامعة في السنة الأولى، أما سلمان فقد شغله الحب عن

كل أمر، وأنساه أن يقرأ، فرسب ولم ينجح إلا بالعشق...

* * *

تلعثمت رباب بالكلام، ولم تنفذ حيلتها بإخفاء بعض الفرنكات عن أم يوسف
لعلمها الأكيد أن أم يوسف لن تتساهل بتحصيل حسابها، وذلك سيجر عليها الويل
من والدها... لأنه إذا علم من أم يوسف أن ثمن البيضات ناقص سيتأكد من أن
رباباً أخذت الفرنكات الناقصة، وسيفرض عقوبة شديدة بحقها، ولهذا دفعت رباب
كامل الفرنكات لأم يوسف فور وصولها إلى المصطبة...

أخذت أم يوسف الفرنكات من رباب، ونظرت إليها وتبينت عددها، وقالت

لرباب:

- جلبت معك فقط عشر فرنكات معنى ذلك ستأخذين ست بيضات..

-نعم يا أم يوسف، هذا ما قاله لي والدي:

أذهبي إلى أم يوسف واجلبي لنا من عندها ست بيضات، لكن: قولي لها أن تعطيك من البيضات الطريّات.

-اسم الله على والدك وعليك... وهل يبيت عندي بيض، حتى يوصيني والدك بأن أرسل له من البيضات الطريّات؟

-أنا أعرف أن الجيران يشترون من عندك البيض كل يوم.

-لا... يا رباب الفهيمية... اسم الله عليك: أنا أبيع كل البيضات التي أجمعها للدكان. حارت رباب، وخافت من أن تتكلم أية كلمة أخرى، لأن أم يوسف لن توافقها على أية كلمة تقولها، وستؤنبها، في كل الأحوال سواء تكلمت أم صمتت...

قامت أم يوسف بعد أن زمت شفيتها، ودققت النظر إلى رباب والفرنكات... مشت عبر البيت باتجاه /العرزال/... لاحقتها رباب بنظراتها، واستوقفتها طريقة أم يوسف العجيبة بالمشي وشمير أثوابها المتراكمة على جسدها الضائع بين الثياب...

من تحت العرزال أخذت أم يوسف وعاء من القش مملوءاً بالبيض، وعادت خطوات قليلة باتجاه رباب، قالت لها:

خذي... هذه هي البيضات، وانتبهي إليها ولا تكسريها، أثناء مشيك على الدرب.

خرجت رباب على مهل، وانطلقت عبر ساحة البيت المزدهمة بالدجاجات والديوك وأفراخ الحمام... لم تجرؤ رباب على الالتفات طويلاً إلى الساحة ودرج البيت ولا شجرة التوت والمصطبة...

كادت تصطدم بحفاف المصطبة ويجذع التوت، ولم تجرؤ على النظر خوفاً من أن تراها عينا أم يوسف... وكادت تصطدم بزوجة ابن الحمودة، دون أن تراها...

لكن زوجة ابن الحمودة بادرتها بالكلام.

-أين كنت يا رباب؟

-كنتُ عند أم يوسف أشترى البيض.

-انتبهي إلى البيضات وأنت تمشين على الدرب...

انطلقت رباب عبر الدرب باتجاه بيت والدها، وزوجة ابن الحمودة احتمت
بسرعة بأغصان شجرة التوت من حر الهاجرة الشديد... قبل أن تتعطف عبر
درب بيت أبي يوسف، نظرت إلى جهة أرض وبيت ابن الصبرة، فألفت زوجته أم
محمود تهئ التور وتجمع الحطب استعداداً للخبز في المساء..

شاهدت رباب سلمان وحسان وولد ابن الحمودة وهم يتجهون إلى جهة السد،
لكنها لم تقدّر في تلك اللحظات ما سبب ذهابهم إلى السد...
دفعت باب السياج الخشبي إلى الأمام، ودخلت صادفت، أختها عند السياج،
تتسلى بأفكارها وهواجسها:

- ألم تشاهدي سلمان؟

- أين هو؟

- انظري إلى جهة السد...

رفعت حاجبيها ونظرت إلى حيث أشارت رباب، فظهر لها سلمان وحسان
وولد ابن الحمودة... قالت رباب:

- أين يذهبون في هذه الهاجرة الحارة؟

- لا أعرف... وقد شاهدت زوجة ابن الحمودة ذاهبة إلى بيت أبي يوسف...

* * *

- في الليل الفائت كان سراج بيتكم منطفئاً يا أم يوسف، ألم تكونا في البيت
لا أنت ولا أبو يوسف؟

- أنا تأخرت عند بنت أخي زوجة ابن الصالح، وأبو يوسف كان عند أولاده
أو عند الجيران.

- صدقيني يا أم يوسف أنني أقلق وأشعر بالانقباض والحزن عندما ينطفئ
ضوء بيتكم...

- ترى هذه النظرة عند كل الجيران.

- يوم يتأخر أبو يوسف في إشعال السراج أحس بالتعاسة، وأقول لابن
الحمودة:

أين ضوء بيت أبي يوسف؟

إنه منطفئ؟!...!

سكتت أم يوسف.. لا لسبب، إلا لأنّ النعاس سرقها، فغفت.. نادتها زوجة ابن الحمودة:

-يا أم يوسف أنت نعسانة؟؟

-نعم... أنا نمت...

-هل تعلمين يا أم يوسف أنني كنت أتمنى لو شاهدت أبا يوسف، لأتني منذ يومين أو ثلاثة أو أكثر رأيت في نومي رؤيا صعبة.

-تأملي الخير... وما هذه الرؤيا؟

-رأيت شجرة التوت تهوي، تقفلها ربح عاصفة، ورأيت الجيران مجتمعين، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء... وحاولت أن أنادي، فلم أقدر، بل أحسست أنني سأخنق... لم يستمر حديث زوجة ابن الحمودة وأم يوسف لأن ضجة عالية جاءت من جهة السد ومن كل الجهات:

اسمعي يا أم يوسف صوت حسان:

أسرعوا يا جيران... ساعدونا على حملة، وأرسلوا من يجلب السيارة.

-قومي أختي قومي... لنعرف ما الخبر؟

قمت أم يوسف رأسها بمنديلها الحريري العتيق، واستندت إلى حفاف المصطبة، ونهضت، وزوجة ابن الحمودة سبقتها... مشت مسرعة عبر الدرب الضيق... وقفت عند طرف البيت ورفعت حاجبها ونظرت إلى جهة السد، فرأت الناس مجتمعين، وعند بيت ابن الأحمد لمحت رباباً وسمرراً وزهوة وابن الأحمد...

فرأت أن تمشي إليهم لتستطلع منهم الخبر... لكنها قبل أن تصل السياج الخشبي عرفت أن ولدها غرق في السد وأسعفه الجيران... ضربت على رأسها ضربة قوية وضاعت في دوار شديد... حتى ارتمت مغشياً عليها قرب سياج أرض ابن الأحمد.

* * *

-هل تعلم يا ابن الصبرة أن شجرة التوت رغم قدمها في دنيانا ورغم عشريننا الطويلة معها فهي إلى اليوم غريبة عتاً في أطوارها وأفعالها وطيورها

وأغصانها.!!!!

-أنت على حق يا ابن الحمودة... شجرة التوت غريبة الأطوار والأحوال، وتظهر بأشكال وهيئات مختلفة، وأحياناً مفرحة... أنا من هنا من أمام بيتي أراها، وأعرف حالة أغصانها إن كانت ذابلة، وإن كانت خضراء... إنني أراها علامة العلامات وشجرة الأشجار... فكم يوجد من الأشجار والمصاطب، لكنني أراها مختلفة، وأرى الجلسة على مصطبتها عند أبي يوسف مختلفة عن الجلسة على أية مصطبة في قريتنا.

-أنت من هنا تراها رغم الكروم التي تمتد بينها وبين بيتك، فكيف أنا وأغصانها تتجاوز سطح بيت أبي يوسف وتصل إلى بيتي وصوت أبي يوسف أسمعته وهو يتكلم كما أسمعك الآن، وضوء سراجي يبشرني بالخير عندما ألمحه من شق صغير في الجدار المقابل لبيتنا، أو عندما يبدو شعاعه من على المصطبة.

-أنا مثلك أرى ضوء سراج بيت أبي يوسف وأفرح، لكنني لا أسمع أبا يوسف إلا حين أزوره.

-انظر إلى أبي يوسف إنه عاد من عند أولاده، انظر إليه إنه دخل إلى ساحة البيت...

-ما رأيك أن نسهر عنده الليلة ونستمع إلى أحاديثه ونحكي له؟؟

-هو قد يذهب إلى بيت كريم، ليسهر عنده أو إلى بيت يوسف بوحمود، ولهذا أسرع في ربط بقرائك وإطعامها، لنتمكن من الوصول إلى بيته قبل أن يذهب إلى بيت أحد الجيران...

-وبيت ابن الأحمد ألا يسهر فيه؟؟

-أحياناً يزوره ويسهر عنده، لكن ابن الأحمد كما تعرف يغيب عن بيته أحياناً أو ينام مبكراً كالذجاج.

* * *

كان المساء يحبو لطيفاً كحلِم حنون بعيد، وكان ابن الصالح يعبر الساقية باتجاه بيته، وكانت أم محمود مشغلة بالخبز تساعد زوجها ابن الصالح... .. وكانت ريح المراعي محملةً برائحة العشب وطعم الصدّاح، والأصوات الخافتة... والطيور تهيم.

نظر ابن الصبرة وابن الصالح وابن الحمودة إلى جهة بيت أبي يوسف فلمحوا ضوء السراج وشجرة التوت التي لم يضعها ظلام العشاء...

أقبل ابن الصالح على مصطبة التتور حيث جلست زوجته، وحيث وضعت أم محمود الأربعة المشوية الساخنة... فسارعت إلى أنفه رائحة الخبز الحنونة، فسارعت يده إلى رغيّف، راح يأكله بشهية... بعد عضات متتالية للرغيّف المشوي، عاد إليه رشده وانتبه إلى ابن الحمودة الواقف بانتظار أن يقدم له رغيّفاً مشوياً... فعاجل ابن الصالح إلى طبق الأربعة وأخذ منه رغيّفاً أسمر شهياً وقدمه لابن الحمودة.

ابن الصبرة لم ينتظر ابن الصالح ليعطيه رغيّفاً من طبق الأربعة، بل سارع إلى الطبق وتناول منه رغيّفاً مشوياً شيئاً جيداً، وراح يمزّقه بأسنانه بتلذذ...

أم محمود لم تقف بباب التتور حاسرة الرأس، بل وضعت على رأسها منديلاً أبيض مرقعاً، تقادياً لوقوع ما يتطاير من شرر التتور في شعرها، ومثلها فعلت زوجة ابن الصالح، قمطت رأسها بمنديل رمادي. سحبت أم محمود /محراك/ التتور وأسندته إلى حفاف التتور الشمالية، ورفعت بيدها المنديل قليلاً عن عينيها وسألت ابن الصبرة:

-إلى أين ذاهب؟

-مع ابن الحمودة وابن الصالح إلى بيت أبي يوسف.

-هل أطعمت البقرات وسقيتها؟

-نعم...

قال ابن الصالح:

أنتما سبقاني وأنا ألحق بكما بعد قليل... مشى ابن الحمودة وابن الصبرة باتجاه الساقية والكروم، بينما ابن الصالح انطلق إلى بيته.. قالت له زوجته قبل أن يبتعد عن التتور كثيراً:

-لا تنسَ أن تسقي البقرة والخواريف.

-لا تقلقي... لكن لا تبقي عندك طويلاً... أنا جائع.

ابن الصالح أكثر شباباً من ابن الحمودة ومن ابن الصبرة، وهو أصغر منهما سناً، وزوجته أصغر من زوجتيهما... حين وصل ابن الصالح ركض ولده وبنته الفتيان لملاقاته. قال له الولد:

- رعينا البقرة والخواريف في المراعي.
- أنتم ومن من الأولاد كنتم في المراعي؟
- كان معنا ولد ابن الأحمد الأعرج، وولد ابن الصبرة...
- هل سقيتما البقرة و /الخواريف/؟
- نعم... سقيناها من الساقية.

ارتاح ابن الصالح لأخبار ولديه عن رعيهما البقرة والخواريف وعن سقيهما، لأنهما بذلك قد أراحاه من مهمة لا يحبها.

قال لولده:

-هات أعطني كرسيًا إلى هنا!!

ركض ولده وأحضر لوالده كرسيًا خشبيًا متوسط الارتفاع عن سطح اليابسة...؟ أخذه وجلس عليه تحت أغصان شجرة البلوط الكبيرة. نظر إلى جهة بيت أبي يوسف فظهر له شعاع ضوء السراج، وظهرت له قامة أبي يوسف المعتدلة، المحنية قليلاً وظهرت له أم يوسف وهي تميل ميلاتها المعهودة وهي تمشي... ظهرت له وهي تغلق باب بيت الدجاجات الخشبي... كان أبو يوسف يهتئ نفسه للذهاب إلى بيت ابن الأحمد، لأنه وعده أن يسهر عنده منذ أيام. وقف إلى جوار جذع التوتة واستند إليه استناداً يسيراً، وراح يلف لفافته على مهل حتى انتهى منها... مدّ يده إلى جيب /جاكيتته/ وسحب منها قداحة... أشعل بها اللفافة... وأخذ منها نفساً عميقاً... وراح يغني:

"صاح ابن شعبان

ريدوني لكم غني.. بطل غناكم وهرجكم عني"

طلق صوته بعيداً في جهات القرية... فسمعه الكثيرون من الجيران... سمعته زوجة ابن الحمودة وقالت في نفسها: "هذا المساء خير علينا، لأن أبا يوسف مسرور خاطر ومنشرح الصدر".

وسمعه ابن الأحمد وسمعته زهوة وسممر ورباب. صوت أبي يوسف حنون كقطع اللقاءات على مصطبة شجرته... يجيء هادئاً رناناً ممثلاً برائحة الأيام والذكريات البعيدة... وهو يغني حين تهز وجدانه ريح التذكر والمساءات الحميمة والشقاء، أو حين تبدأ الأحاديث في السهرات.

أعاد صوت أبي يوسف لزوجة ابن الحمودة ذكرى رحيل ولدها... وذكرها

بحكاية ابن شعبان القديمة... لكنها لم تبعد عن شجرة التوت وضوء بيت أبي يوسف الذي ظهر لها من شق صغير في الجدار المقابل لبيتهم...

لم يستمر أبو يوسف بالغناء، لأن صوت ابن الحمودة وابن الصبرة جاء من جهة الكروم منادياً:

-بوزهرة اقترب من البيت يا أبا يوسف.

بلغ صوت ابن الحمودة سمع أم يوسف، فهبت واقفة وأسرعت في الخروج من البيت، لتعابن باب بيت الدجاجات الخشبي... إن كان مفتوحاً... ولتتأكد من سلامة عيدانه، ومن وجود جميع الدجاجات. حين خرجت، كان أبو يوسف واقفاً قرب جذع التوتة، وعينه منتبهتان إلى كل الجهات خوفاً من ثعلب /بوزهرة/. وصل ابن الحمودة وابن الصبرة مسرعين إلى حيث وقف أبو يوسف:

-السلام يا ابن الكرام.

-وعليكما السلام

-قال ابن الصبرة:

-مساؤك خير يا أبا يوسف.

-ومساؤك يا ابن الصبرة ويا ابن الحمودة. سمعت زوجة ابن الحمودة صوت زوجها، وعرفت أنه جاء وابن الصبرة إلى عند أبي يوسف، ولهذا نهضت، ولبست /حدوتها/ السوداء الشقية، وانطلقت عبر الدرب المؤدي إلى بيت أبي يوسف.

الدرب الواصل بين بيت أبي يوسف وبيت ابن الحمودة ليس طويلاً... يمر من أمام بيت ابن الإسماعيل ووراء جدار بيت أبي يوسف الشرقي... خطوات يسيره عبر درب صغير محفر قليلاً يمشيها القادم من بيت ابن الحمودة إلى بيت أبي يوسف... حتى في الليل ليس صعباً على زوجة ابن الحمودة أن تمشي عبر الدرب المؤدي إلى بيت أبي يوسف... فضوء البيت يصل إلى الدرب تماماً...

ابن الأحمد وزهوة وولدهما الأعرج نظروا إلى جهة بيت أبي يوسف فرأوا ضوء السراج، وسمعوا أصوات ابن الصبرة وابن الحمودة وأبي يوسف. قال ابن الأحمد:

أبو يوسف لن يسهر اليوم عندنا، لأن ابن الصبرة وابن الحمودة ساهران عنده. على البساط القشي جلس الثلاثة، ابن الصبرة وابن الحمودة وأبو يوسف، وقريباً منهم على طرف من أطراف البساط جلست أم يوسف وزوجة ابن الحمودة.

ضوء السراج كان ينتشر في جهات المصطبة، وأغصان التوتة تتسع وتبتعد في عشاء القرية... وكان ابن الأحمد وزهوة يريانها جيداً، ويلمحان أوراقها... ومثلها رآها كريم وولده حسان ويوسف بوحمود وولده سلمان الذي حزن أشد الحزن لسفر سمر الطويل إلى أختها في المدينة...

إذا صدق ظني سمر بنت بن الأحمد لن تعود إلى أهلها إلا متزوجة وزواجها ليس موفقاً يا أم يوسف!.

كان الصبح بهياً، وتغريد الطيور يملأ أفق التوتة، وكان صوت ابن الأحمد عالياً غاضباً على ابنه الأعرج وعلى زوجته، وكان ابن الصبيرة منشغلاً بفلاحة أرضه القريبة من الساقية... وكان ابن الحمودة وزوجته في الأرض المجاورة للبيت يلمون أوراق التبغ اليابسة وكان صوت أسعد الشحاذ يخلق في سماء القرية قادماً من جهة الدكان... قال أبو يوسف كلماته وعاد إلى التأمل، وفنجان الشاي ولفافة الدخان المشتعلة... لكن أم يوسف رغم انشغالها بإطعام الدجاجات أخذتها كلمات أبي يوسف بعيداً... وتركتها في دهشة، وحبيرة لا تنتهيان، ولهذا عادت مسرعة إلى الكلام:

- ما الذي جعلك تقول إن سمرأ تزوجت وزواجها غير موفق؟

- شجرة التوت يا أم يوسف.

- الله أكبر يا أبا يوسف... وهل تنطق شجرة التوت؟

- لا لا تنطق، لكنها تظهر لي بأشكال وأشكال، فأعرف منها أموراً كثيرة وأقدر أموراً كثيرة...

- وكيف رأيتها حتى عرفت أن بنت ابن الأحمد تزوجت وزواجها غير موفق؟

- رأيتها بين ساقيتين، وكل ساقية فيها وحش. وشجرة التوت بعيدة عنها... ناديتها كثيراً: يا سمر... يا سمر... أنا هنا... اقتربي مني... شاهدي شجرة التوت... لكن سمر لم تسمعني أو أن خوفها من الوحشين منعها من سماع صوتي... ورأيتها تهرب لكن إلى جهة مخيفة، يبدو فيها الظلام ويسمع فيها

صوت البكاء والصراخ.

-يا ستر الله يا أبا يوسف... ما هذه الرؤيا؟

-هذا ما رأيته يا أم يوسف في نومي، وحين استيقظت صباحاً، نظرت إلى جهة بيت ابن الأحمد فألفيت أشجاره ذابلة، وألفيت ولده الأعرج يخرج باتجاه الدكان لا أدري لماذا... وشجرة التوت أراها على غير حالها من الخضرة وطيب الرائحة.

أم يوسف لم تستطع أن تهدأ بعد سماعها حديث أبي يوسف، بل انطلقت شرقاً إلى بيت ابن الأحمد، لتعرف من زهوة الخبر الأخير عن سمر وحياتها عند أختها.

مشت كعادتها متمهلة الخطوات، ولم تنس أن تميل مع كل خطوة ميله، وأن تتظر إلى جهة المراعي حيث يبدو مرعاها الخاص بها، لتقطع من عيدانه الأشجار ولتجمع من جهاته الطيون والحطب، من أجل إشعال التتور في المساءات، ومن أجل إشعال النار في الأتقية تحت برميل الماء، وتحت قدور الطعام. تناهى إلى سمع أم يوسف صياح ديك الدجاجات وتناهى إلى روحها وقع الخوف من مصيبة مرتقبة... أحست أن خيلاً تركض وراءها وهي لا تقدر على الركض، وأحست أن الساقيتين اللتين حكى لها عنهما أبو يوسف موجودتان قريباً، وأن الوحشين ينشران الخوف في جهات القرية وأن شجرة التوت سيصيبيها اليباس، أو ستبتعد هي وأبو يوسف عن عشرتها قسراً...

كادت تجتاز بيت ابن الحمودة دون أن تسلم على ابن الحمودة وعلى زوجته... أخذها الخوف بعيداً، وأضاعها عن شجرة التوت... ولولا أن زوجة ابن الحمودة كلمتها لبقيت سارحة مع خوفها وهواجسها المرعبة إلى أن وصلت إلى بيت ابن الأحمد...

نادت زوجة ابن الحمودة:

-يا أم يوسف يا أم يوسف... أين أنت سارحة؟

انتبهت أم يوسف من ذهولها...

-نعم نعم يا زوجة ابن الحمودة... أنت هنا ولم أرك... الإنسان معروض

للسهو والنسيان.

-تفضلي... لنجلس عندنا.

-سأزور بيت ابن الأحمد... لأستخبر عن حال بنتهم سمر...

-وهل حصل لها شيء؟

تقدمت أم يوسف باتجاه بيت ابن الحمودة على مهل: لا أعرف عن أمرها شيئاً حتى الآن، لكن أبا يوسف حكى لي عن رؤيا رآها في نومه فخفت منها وحسبت لها حساباً صعباً...

-أجارنا الله من مصيبة ستحل في القرية... وما هي هذه الرؤيا يا أم يوسف؟

-قال لي: إنه شاهد سمرأ بنت ابن الأحمد بين ساقيتين وكل ساقية يوجد فيها وحش... ورأى شجرة التوت بعيدة عنها، ونادى باسمها أكثر من مرة لكنها لم تسمعه أو أن الخوف من الوحشين منعها من أن تسمعه... ولم تقترب من شجرة التوت... ورأها تهرب إلى جهة معتمة...

-معنى هذا أن خطباً ما قد أصاب سمر...

-هل تكون جوهرة زوّجتها من رجل قريب من زوجها؟

-جوهرة ذاقت المر من والدها ولهذا تكون فكرت إذا زوجت سمرأ تريحها من عيشها مع أبيها وغضبه.

لم يمضِ نهار ذلك الحلم، حتى كانت قرية شجرة التوت بأكملها سمعت بما رأى أبو يوسف، وتساءلت عن مصير سمر بنت ابن الأحمد...

أم سلمان ولد يوسف بوحمود لم تحملها نارها، حين سمعت خبر ما رأى أبو يوسف وسارعت إلى زهوة لتسألها:

-كيف حال سمر، وهل ستبقى عند أختها؟

-سافر أخوها إلى المدينة ليستخبر عنها وعن حالها، وحتى الآن لم يرجع...

وصل ولد ابن الأحمد إلى المدينة ظهراً، سأل كثيراً عن الحي الذي تقطنه أخته جوهرة وأخيراً وصل إلى بيتها... من بعيد عرفت جوهرة أخاها، عرفته من مشيته العرجاء، لكنها لم تقدّر سبب مجيئه إليها...

-مرحباً أختي جوهرة.

-أهلاً وسهلاً... كيف عرفت أن تصل إلى بيتي... وأنت لم تترني قبل

اليوم؟؟

-استدليت من الناس حتى وصلت.

-كيف والدتك ووالدك وكيف رباب وسمر؟

-تغيّرت ملامح قرميد واسودت، وبان عليه الحزن الشديد... سألته جوهرة:

-ما لك أخي قرميد... أخبرني، هل طردك والدي من البيت، أم ماذا؟؟

-لا لم يطردني، لكنه أرسلني إلى هنا لأستخبر عن حال سمر...

-عن حال سمر...؟؟!! هي منذ خمسة أيام تقريباً تركت البيت، ولم تعد،

بحجة أنها ذاهبة إلى القرية.

-معنى هذا أن خوف والدي في محله...

-الله، يا قرميد... هل تكون تزوجت وهريت؟

-هذا ما نحن خائفون منه.. خاصة أن والدي شاهد في نومه أن شجرة

التوت مقطوعة، وأن بيت أبي يوسف مهجور.

لم تستطع جوهرة أن تتخيل أن شجرة التوت مقطوعة، لكنها خافت خوفاً

شديداً، لأنها تعرف تمام المعرفة أن شجرة التوت غريبة وعجيبة بأطوارها

وأغصانها وتبدلات حالها... ولأنها تعرف أن بيت أبي يوسف علامة خير على

القرية كلها، وإذا أصابته مصيبة، أو انهدم، فذلك نحس كبير وشرّ وضرر...

ابتعدت جوهرة عن أخيها قرميد إلى ذاكرتها... إلى شجرة التوت وبيت أبي

يوسف، وتاهت في دروب القرية باحثة عن حكايات أبي يوسف ورائحته

وأغانيه... لكن صوت قرميد سحبها من دنيا هواجسها وذهولها:

-آه على سمر خسرتها يا جوهرة!

-هذا حظ كل من ولد في بيتنا يا قرميد!

-أنت محقة يا جوهرة، لكن ما الحيلة؟؟

-لكن ما الحيلة فعلاً يا قرميد؟

-أنا سأعود إلى القرية لكنني لا أعرف ماذا سأقول لوالدي وللجيران ولأبي يوسف وشجرة التوت...

-أبو يوسف يكون تتباً قبل الجميع بمصير سمر يا قرميد... هل تعرف أنه أول من أخبر القرية بخبر غيابي عن القرية: حين تركت البيت، منذ سنوات. يومها رأى في نومه أن شجرة من الشجرات المحيطة ببيتنا غابت، وأخبر أم يوسف بما رأى، وقال لها: جوهرة بنت ابن الأحمد هربت من البيت يا أم يوسف... وهذا ما حصل فعلاً يا قرميد...

-اسمعي صوت أسعد الشحاذ... إنه يغني يا أم يوسف... وأظنه سيجيء إلينا قبل أي أحد...

-أذكر الدير وحضّر القضيبي... أسعد صار عند زاوية أرض التوتة.

-نظر أبو يوسف إلى جهة الدرب فرأى أسعد، حاملاً كيسه العجيب فوق كتفه، نظر أسعد إلى الساحة وبيت الدجاجات الخشبي وإلى عتبة البيت، ليتأكد من وجود أو عدم وجود أم يوسف، لأنه يعرف طباع أم يوسف ولهذا يغيّر في حال وجودها من سلوكه: يركن إلى عقله ومسكنته، بينما إذا كانت غائبة فذلك يسمح له بأن يطلب من أبي يوسف الأكل وبعض الفرنكات والقمح... لم يطل أسعد النظر إلى جهات الساحة والبيت، حتى بدت له أم يوسف وفي يده تنكة متوسطة الحجم، وفي حلقه كلام يريد أن يقوله لأبي يوسف. أسعد صديق قرية شجرة التوت منذ سنوات وسنوات، فهو لا ينقطع عن زيارتها أكثر من أسبوعين أو ثلاثة... وإذا تأخر يسأل جيران شجرة التوت عن سبب تأخره... وهو لم يتزوج ولن يتزوج، لأن حظه من الجمال كحظه من الغنى، وحظه من الدنيا كحظ أولاد ابن الأحمد من السعادة، جهة وجهه اليمنى مائلة ميلاناً شديداً حتى يخاله الناظر إليه لأول مرة أنه صفع صفة قوية، أو أن الجوع أكل بعض وجهه، وعينه اليسرى لا تصلح لشيء إلا كعنوان من عناوين الشقاء المرير... وساقه اليسرى تضامنت مع عينه تضامناً بعيداً، فهي عرجاء عرجاً مهماً في تاريخ الفقر

والتعاسة والشحار والتشرد، وأهميته تأتي من شجاعته في اجتياز الغابات والمسافات المقفرة...

عندما وصل إلى حفاف المصطبة، أنزل عن كتفه الكيس، ووضعها والتتكة قرب جذع التوتة، وأقبل على أبي يوسف مصافحاً بكلتا يديه...

ضحك أبو يوسف، وهو يرى أسعد يسلم عليه بيديه الاثنتين ويحاول أن ينحني تعبيراً عن كثرة الاحترام...

-كيف حال أخينا أبي يوسف؟

-بخير يا أسعد، لكن لماذا تسلم علي بيديك الاثنتين، وكأنك خائف علي من أن أهرب من بين يديك.

والانحناء، لم أرك تتعامل به معي قبل اليوم هل ورثته عن أبيك أو تعلمته من دنياك أو قلدت به أحد محبي الانحناء.

خرجت من البيت وفي يدها إبريق الشاي والفناجين، فعلم أسعد أن أم يوسف خصته، بفنجان من الشاي. قام أسعد وأدى التحية من قريب إلى أم يوسف وعاد إلى مكانه سالماً معافى... قبل أن تنتهي أم يوسف ملء الفناجين بالشاي، قرر أسعد أن يبدأ الحديث عن سمر وزواجها من ولد قحموص العامودي... ليرضي دهشة أم يوسف ويضمن عدم غضبها عليه... أخذ أبو يوسف رشفة من فنجانها، وأشعل لفافته، وقدم لأسعد لفافة عريضة وأشعلها له...

أخذ أسعد نفساً من اللفافة، وبدأ الكلام مع الدخان واللحاح المتطاير من طرفي شفتيه المتباعدتين... قال:

-هل تعلم يا أبا يوسف أين تزوجت بنت ابن الأحمد؟؟

-وهل تعلم أنت يا أسعد...؟؟

دهشت أم يوسف، وشدت جسدها كدجاجة تنتظر أن تأكل أو خائفة من أفعى... قال أسعد:

-نعم أعلم أين تزوجت وأعرف والد زوجها.

-من هو والد زوجها؟.

-قحموص العامودي.

-آخ ثم آخ على حياة سمر إذا كان ولد قحموص كوالده...

-صدقني يا أبا يوسف الولد ألعن من الوالد، ولا أعرف كيف وقعت سمر هذه الواقعة.

-وهل شاهدت سمرًا يا أسعد؟

-نعم شاهدتها وحملتني لك ولأم يوسف أطييب السلام. أضاف أسعد من عنده سلاماً لأم يوسف طمعاً في فنجان شاي لاحق...

-وأين شاهدتها؟

-شاهدتها في بيت قحموص العامودي... وهي نادمة، لكنها قالت لي: وقعت بين نارين، والدي من جهة وأختي من جهة، واعتقدت أن ابن قحموص جيد... لكن الحظ لم يخدم، وضاعت حياتي.

-قالت أم يوسف بتعجب:

-سبحان معطي العباد الفراسة والعلم... كيف تنبأت بكل هذا يا أبا يوسف قبل أن تسمع أي خبر عن سمر... كيف عرفت أن سمرًا تزوجت زوجاً غير موفق، وكيف عرفت أن أختها جوهرة كانت تفكر بتزويجها من قريب من أقرباء زوجها...

-يا أم يوسف، من يعيش مع شجرة التوت البرية كل هذه السنين، يعرف الريح من أين تهب قبل هبوبها، ويعرف الطائر من أين يجيء... ويعرف أن سمرًا ستضيع حياتها وأيامها قبل أن تظهر شمس النهار...

سكنت سمر وزوجها في غرفة أو شبه غرفة ترابية.. هي في الأصل مستودع للتبن... ولا بد لسمر حتى تصل إليها من المرور عبر البيت ومصادفة والد زوجها قحموص وإخوته وأخواته... وأمه. حين دخلت سمر إلى الغرفة المخصصة لها تذكرت حتى البكاء الغرفة الداخلية في بيت أبي يوسف، وتذكرت بابها الواطئ، وتذكرت أن هكذا غرفاً تكون للتبن والحاجات، فهي دون نوافذ، ودون متنفس...

قالت في نفسها: "ما أتعس حظي وما أشقاني... إنه قدرني القاصم للظهر...

هربت من والدي إلى أختي فطلبت مني أن أتزوج قريب زوجها فهربت منها، فالتقيت بولد قحموص العامودي، فأغراني بشبابه وكلامه وغاب عن ذهني أن حياته مع والده أتعب من حياتي مع والدي... يا ليتني صبرت على الدهر والقهر وتزوجت من سلمان فهو يحبني وأنا أحببته وحياته مع والده وأهله مقبولة... لكن ما الحيلة الآن وقد وقعت...؟

هل يقبلني سلمان زوجة بعد الذي حدث وهل يقبل والده وهل يوافقه جيران شجرة التوت؟

بعد أيام من المكابدة والرعب قرّرت سمر أن تهرب من بيت زوجها... لكنها عادت إلى تساؤلها: كيف سينظر إلى جيران شجرة التوت وأبو يوسف؟ وأم يوسف إذا طلبت أن أنام عندها هل تقبل؟ وزوجة ابن الحمودة كيف ستنظر إلي؟ وسلمان... هل يقبل أن أعود إليه؟ وأهلي كيف سأواجههم؟؟ والدي... وأمي... وأخي وأختي رباب وأختي جوهرة... ليت والدي كان كأبي يوسف رحيماً بالحياة وبنا، وليت أشجارنا كانت كشجرة أبي يوسف تلم الجيران، وتبشر بالخير، وتنبئ بالخطر".

كان المساء حزيناً طافحاً بالشقاء وكانت غيوم السماء تفر من الريح دون مطر... وأجنحة مبعثرة كانت تتوه في الأفق كالأحلام مرّتها الخوف وباعد بين بداياتها ونهاياتها... وكانت سمر تقف أمام بيت قحموص العامودي والد زوجها، وتنظر إلى البعيد، فتظهر لها قرية شجرة التوت كغابة خوف ملمومة الأشجار والدروب والأغاني والمراعي...

حاولت سمر في ذلك المساء المكبل بالوساوس والهموم أن تلمح أغصان شجرة التوت، أن تسمع صوت أبي يوسف لكنها لم ترَ إلا عيون الجيران وهي تنتظر إلى بيت والدها نظرات غريبة حائرة متعجبة... ولم تسمع إلا حديث الجيران عن غيابها وزواجها وضياعها وضياع أختها وإخوتها وكل أهلها، وعن غرابية طبع والدها وغضبه الدائم، وعن قصة أرضه التي أخذها ابن الحسن بالقوة والحيلة...

خافت كثيراً أن يطول بها الشقاء في غرفتها الداكنة مع زوجها وأن لا ترى شجرة التوت وأبا يوسف فتضيع آمالها الأخيرة، وتهوي نجمة أحلامها في وادٍ سحيق...

-ابن الحمودة وزوجته منشغلان بجمع ما تبقى عندهما من تبين يا أم

يوسف.

-وابن الأحمد غائب عن بيته منذ أيام، وزهوة لا تعرف إلى أين يذهب...
لأنه لم يخبرها بشيء عن غيابه وسفره، يا أبا يوسف.

-صوت ابن الحمودة وزوجته مسموع إلى هنا، إنهما يحكيان عن غياب ابن
الأحمد وعن زواج ابنته سمر غير الموفق.

-هل أنهيت فجانك، لأدخل الإبريق والفناجين إلى البيت، وبعد ذلك سأجمع
البيضات في السلة وسأخذها إلى دكان يوسف بوحمود...

-وأنا قد أذهب إلى عند ابن الصبرة، لأنني سمعت صوته قادماً من جهة
الساقية...

-أنت تحب أن تذهب إلى عند ابن الصبرة، سمعت صوته أو ما سمعته.

-الجلسة قرب الساقية والنبع تفرح النفس يا أم يوسف... لكنني أفكر بزيارة
بيت كريم قبل الذهاب إلى بيت ابن الصبرة...

بيت كريم يجاور أرض بيت أبي يوسف من الجهة الشمالية الغربية، وهو
بيت ترابي يشبه بيت أبي يوسف لكن الأشجار التي أمامه ليست كشجرة أبي
يوسف سعة أغصان ورسوخ جذع، وطيب رائحة واخضرار أوراق...

أم يوسف انشغلت بجمع البيضات وترتيبها في السلة من أجل ألا تتكسر
أثناء سيرها من البيت إلى الدكان، وأبو يوسف جمع أطراف /قمازه/ واتجه إلى
بيت كريم...

طريق ضيقة قصيرة حملت أبا يوسف من على مصطبته الترابية تحت شجرة
التوت وقذفته برفق إلى بيت كريم...

حينما وصل كانت زوجة كريم قد انتهت من طبخ قدر كبير من /القمحية/
وكان حسان ولدها منشغلاً بأوراقه... وكان سلمان ولد يوسف بوحمود يتجه إلى
حيث وقف أبو يوسف أمام بيت كريم... سمع حسان صوت أبي يوسف، فأسرع
لملاقاته والجلوس معه.

قال أبو يوسف حين رآه ورأى سلمان قادماً ورأى زوجة كريم تعد له صحناً
من القمحية:

"عليم الله أنني أرتاح عندما أجيء إلى هنا... إنني أشعر بحبي لأولادكم
جميعاً، أنسى همومي حين أراكم..."

وأحب إلي وأطيب أن أكل الخبز والزيتون، وأن أنام تحت المطر والرعود في هذه القرية، فوق مصطبتي مع نقيق أم يوسف من أن أكل اللحم والمرق في غرف أولادي... والله لا أتمنى أن أهرها...

في هذه القرية أحس بالفرح، وحين أغيب عنها نصف النهار أشتاق إليها، وكأنني غبت عنها شهراً كاملاً... لا تتبسط مشاعري، ولا تتشرح أساريري إلا في بيتي جوار شجرة التوت... أنام أنا وأم يوسف في عزالنا وتحتنا مقاقات الدجاجات وقرب سمعنا صوت الحمامات والأفراخ... سافرت إلى تركيا واليمن، وشاريت الأتراك والفرنسيين وشقيت في السعي وراء لقمة العيش، وابتعدت في هذه الدنيا، لكن شجرة التوت بقيت في روحي وحياتي، وبقيت أبحث عن صبح أفتح عيني عليه أمام بيتي قرب جذعها... عشت حياتي كلها أصبر على الجوع، وعندما أشبع خبزاً أحس أنني في نعمة لا تنتهي، أشعر أنني مرتاح ومسرور، فأرى الدنيا واسعة طيبة العيش... كم شقيت في الفلاحة والركض وراء الرزق، كنت أبقى النهار بطوله دون أكل، وفي العشاء حين أعود إلى بيتي وأخلع حدائي وأتمدد قرب شجرة التوت، وبعد قليل تأتيني أم يوسف برغيفين من الخبز وبيضتين مسلوقتين... كنت أنسى تعبتي وجوعي ونهاري المرير. "حسان وسلمان انشداً إلى حديث أبي يوسف، وتمنيا أن يستمر فيه لكنه انقطع عنه لانشغاله بلف لفافة التبع:

-أنتما ألا تلفان من علبتي... أنتما متعودان على العلب الجاهزة.

رد حسان:

-نتمنى أن نتعود على علبتك فهي أفضل من علبتنا.

-الخير فيك يا حسان وفي سلمان الحزين لزواج سمر غير الموفق...

صمت سلمان... وحسان أيضاً صمت لأن أبا يوسف أخذ صحن القمحية الذي قدمته والدته وبدأ يأكله.

بعد أن أنهى صحن القمحية، تناول علبته ولف منها لفافة عريضة، وأشعلها ونهض... قال له حسان:

-نتمنى أن تشرب عندنا الشاي.

-في المساء نشربها عند شجرة التوت، والآن سأذهب إلى ابن الصبرة. على مهل انطلق أبو يوسف بقامته الصغيرة التي أتعبتها ضربات الدنيا القاسية... باتجاه بيت ابن الصبرة. قال حسان لسلمان:

تجاعيد وجه أبي يوسف تحكي تفاصيل حياة صعبة وتروي سيرة عيش مرير، لكن عينيه لم تفقدا بريق صباحات شجرة التوت وملامحه لم تخسر بهجة الحنين إلى البراري والوفاء، وفمه محتفظ حتى اليوم بجمال النطق والأغاني القديمة وحكايات الأيام البعيدة...

من بعيد يعرف الجيران المنتشرون في أراضيهم وأمام بيوتهم أين تتوجه خطوات أبي يوسف... ابن الصبرة قال لزوجته وقد رآه ينطلق من جهة بيت كريم: -قدما أبي يوسف ستقودانه إلينا.

-هو الآن يمشي باتجاه الساقية، لكن لا تعرف إن كان سيتجه بعد الساقية إلى بيت ابن الصالح أو إلى بيتنا؟؟!!
-لا... سيتجه إلى بيتنا...

تربط ابن الصبرة بأبي يوسف عشرة طويلة، تبدأ تخومها بالفلاحة والشقاء والجوع وشجرة التوت، وتنتهي بالعيش وشجرة التوت.. قبل أن يصل إلى شجرة الزنزلخت التي قدام بيت ابن الصبرة تأكد من وجود ابن الصبرة... لأن ابن الصبرة مشى باتجاهه...

-أهلاً بأبي يوسف...

-أهلاً بالمؤهل أكثر...

-تفضل...

-الجلسة تحت الأغصان تسرني وتريحني.

-لأنها تذكرك بشجرة التوت...

-سأظل أرى المصطبة وشجرة التوت والرائح والغادي من هنا.

-شجرة التوت تشرف على المروج والمراعي والساقية وكل بيوت الجيران.

-هذا الكلام صحيح... لكني يا أبا محمود في هذه الأيام أشعر بتغير شجرة التوت...

-هذا الفصل حار وهذا هو السبب...

-السبب أبعد من الحر، والعطش... أنا أعرف شجرة التوت خير معرفة، عشت معها دهرًا طويلاً... جاء صوت أم محمود من جهة البيت:

-لا تكدر بالنا على شجرة التوت وعلى حالنا وحال كل الجيران.

-أنا أتأمل الخير ولو كان لغيري فكيف إذا كان الأمر بشأن شجرة التوت يا أم محمود.

-اليوم فكرت بأن أقشر علبه قمح للقمحية في الجرن، لكنني شاهدت أم يوسف منذ الصباح تحمل سلة البيض وتتجه إلى الدكان.

-الجرن ليس لأم يوسف وليس لأحد لوحده، فهو لكل جيران شجرة التوت للبعيدين والقريبين... وأم يوسف كما تعرفين كل يوم أو كل يومين تجمع البيضات وتأخذها إلى الدكان.

دكان يوسف بوحمود أو دكان قرية شجرة التوت غرفة واحدة ترابية، لا تتصل بأي بيت إلا بيت سبحة التنورية بطرفها الغربي، لأنها في الأصل لم تكن ليوسف بوحمود، بل اشتراها في سنة مبكرة من سنوات عمره الممتلئ بالشقاء والجوع والبحث عن العيش... اشتراها من /سبحة/ التنورية أخت /صالح التنوري/...

وصلت أم يوسف إلى ساحة الدكان قبل الضحى، فصادفت أول من صادفت قبل دخولها إلى الدكان سبحة التنورية... كانت تسرح شعرها بمشط خشبي طويل الأسنان وتستعيد ذكريات أيامها وحياتها...

كادت أم يوسف تصطم بسبحة دون أن تنتبه سبحة لها، لأن أم يوسف تمشي مشية عجبية وكأنها نملة ضخمة تسعى في الدروب، فلا يسمع لخطواتها أي صوت... قالت:

-شايقة سبحة منشغلة بتمشيط شعرها، وكأنها عروس جديدة.

-الله أنت هنا ولم أرك يا أم يوسف...

أهلاً وسهلاً... تفضلي اجلسي.

-سأسلم البيضات ليوسف وأخذ منه المقابل قبل أن تتكسر منها أية بيضة...

-الله عليم أنك لو تمشين على البيض يا أم يوسف لا ينكسر... لأنك تتمهلين حتى لا يسمع لمشينك أي صوت. لم تتابع أم يوسف حديثها مع سبحة التنورية، بل أسرعته إلى الدكان... رآها بوحمود وهي تتقدم من جهة سبحة

باتجاهه... فأهل بها قبل أن تصل:

قال له:

- أهلاً وسهلاً بأم يوسف...

وبالمؤهل أهلاً وسهلاً يا بوحمود.

- البيضات اليوم كثيرات كما أرى؟؟

- جمعت بيضات الدجاجات البارحة واليوم...

- هات السلة...

- تفضل...

قدّمت أم يوسف السلة القصبية بتأن، وانتباه شديدين، وكأنها تقدم روحها، لكن يوسف استلمها بسرعة كعادته، ووضعها على الرف الخشبي الفاصل بين المشترين وبينه، وأخذ يتناول كل بيضة على حدة...

- كل بيضة لوحدها يا أم يوسف!!

- لتعرف أن أم يوسف أنبه من حضرتك.

- أنت على الرأس وأنت ست الكل يا أم يوسف.

- تسلّم يا يوسف.

- أبو يوسف أين هو اليوم؟

- وقت بدأت بجمع البيضات كان أمام بيت كريم وكان ولدك سلمان وكان حسان ولد كريم وكانت زوجة كريم، وبعد وقت قصير شاهده يمشي صوب المروج، فقدّرت أنه سيذهب إلى بيت ابن الصبرة أو إلى بيت ابن الصالح. لم ينته حديث الدكاني بوحمود وأم يوسف، لأن أصوات ابن الصالح وابن الصبرة ارتفعت. قالت أم يوسف:

- ابن الحسن - اللعنة عليه - أخذ أرض ابن الأحمّد - وأنت تعرف بالمكر والحيلة، ويحاول الآن أن يأخذ أرض ابن الصالح...

خرج يوسف بوحمود من وراء الرف الخشبي مسرعاً باتجاه الساحة... وقف على حفاف الساحة ونظر بإمعان إلى جهة أرض ابن الصالح فلمح ابن الصالح وابن الصبرة وأبا يوسف وابن الحمودة ولمح الماكر - ابن الحسن - قال لأم يوسف:

- هذا الماكر ابن الحسن ألا تريحنا الدنيا منه، أخذ بالحيلة أرض ابن الأحمد
ودمر حياته وعمره والآن يحاول أن يأخذ أرض ابن الصالح...؟؟!!

- إنه يشبه ثعلب /بوزهرة/.

-قولي: ألعن من /بوزهرة/ وأخطر على الجيران.

- هو بحساباته يفكر أن يأخذ أرض ابن الصالح ويضمها إلى أرض ابن
الأحمد.

-وأرض ابن الصالح متاخمة لأرض ابن الأحمد، لكنني أرى أن الضجة
قويت، وأن الناس يتراكمون... وأنا سأغلق باب الدكان وأركض إلى مكان
اجتماعهم، وفي الغد أحاسبك بثمن البيضات...

-حيف عليك يا يوسف... وكأني خائفة عليك من أجل البيضات... اذهب
وساعد ابن الصالح على مصيبيته.

المسافة التي تفصل أرض ابن الصالح، حيث اجتمع الناس، عن الدكان
ليست بعيدة، لكنها ليست مستوية... وأحفتها كثيرة ولهذا لا بد ليوسف من أن
يتمهل أحياناً... وإلا تتناوله الأحفة، وتلقي به إلى أحد المروج، فينكسر... وبذلك
لا يساعد ابن الصالح، ويصبح بحاجة لمساعدة الآخرين.

ترأى له وهو يتقدم عبر المروج ابن الحسن برأسه المفلطحة كحجر الجرن
وشعره الأشيب وعينيه المتلفتتين وشفتيه السميكتين جداً كجلد حدائه...

وقف أبو يوسف بقامته المحنية قليلاً، وراح يراقب ابن الحسن. وصل يوسف
بوحمود إلى حيث وقف أبو يوسف واقترب منه.

-ما سبب الخلاف؟؟

-الماكر ابن الحسن...

أخذ أرض المشحر ابن الأحمد وأراد أن يأخذ أرض ابن الصالح، لكنه أخذ
نصييه من الضرب... ابن الصالح رجل وقلبه كالحديد. نظر يوسف إلى
المجتمعين... وراح يعاينهم واحداً واحداً، ويستمع إلى أصواتهم العالية...

-أنا هنا في أرضي، ولن أتركها إلا بالرحيل عن الدنيا يا ابن الحسن يا
ثعلب يا مكار... صمت ابن الحسن لأنه عرف أنه إن تكلم ستتاله يد ابن الصالح
بالضربات، وبعد لحظات فكر بأن يصعد إلى بيته.

قال أبو يوسف:

-انظر إلى أرض ابن الأحمد، كم شقي والده بأشجارها، وكم عاش فيها،
كان لا يتركها طوال أيام الصيف... ألا تشاهد مثلي تخمها المغطى بعرائش
العنب... والعليق.

-نعم أرى أرض ابن الأحمد وأرى شجرة التوت.
-نظر أبو يوسف إلى شجرته، فألفاها حزينة، وكأنها في حداد لا ينتهي.
بعد وقت قصير ترك ابن الحسن الارض والمجتمعين دون أية كلمة... ومثله
فعل ابن الصالح وابن الصبرة وابن الحمودة وأبو يوسف ويوحمود.

كعادتها أم يوسف كل يوم تحصي عدد الدجاجات والأفراخ، وتطعمها،
وتدخلها إلى بيتها الخشبي وتعلق وراءها الباب. لكنها هذا المساء وجدت بعض
الدجاجات مفقودة، فأطلقت صوتها عبر الفضاء:

-الذي سرق هذه الدجاجات يبليه الدهر بالعمى والفقر والتشجير... ومئة
لعنة ولعنة عليه وعلى كل أهله... سمع كل جيران شجرة التوت صوت أم يوسف
وعرفوا أن بعض دجاجاتها وأفراخها مفقود... سمعتها زوجة ابن الحمودة، ومشت
مسرعة باتجاهها:

-خير يا أم يوسف... هل راح من الدجاجات شيء؟...
-غائب ثلاثة أفراخ وأربع دجاجات كبيرات.
-أوف... أوف... المصيبة ليست هينة... عادت أم يوسف إلى سبابها
وشكواها:

أنا كيف تركت البيت اليوم لا أعرف... أنا كيف أمنت على دجاجاتي أن
أتركها للماكرين وأولاد الحرام...

كان المساء موحشاً، وكانت شجرة التوت على غير عاداتها ذابلة... وكانت
رائحة الفجائع والمصائب تضح في دنيا القرية... وقت غابت دجاجات أم
يوسف... أبو يوسف كان في المدينة عند أولاده أو في مكان آخر، ولم يعرف
بفقدان الدجاجات إلا حين رجع وسمع صوت أم يوسف...
قال في نفسه وهو يتجه إلى المصطبة:

"أكون /بوزهرة/ سرق الدجاجات أم أن أحداً من أولاد الحرام فعل فعلته اللئيمة، أم أن شجرة التوت ليست على حالها من الخضرة وزهو الأغصان؟؟ كل شيء وارد يا أبا يوسف... لكن الأصعب في هذه الأمور هو أن تدبل شجرة التوت أو أن أتركها..."

-أراك غاضبة يا أم يوسف... طولي بالك، والرزق على الأيام.

-أنت دائماً لا يهملك إلا أن تجلس تحت شجرة التوت وتشرب الشاي وتشعل لفافات الدخان، لكن إذا فقدت الدجاجات من أين ستشرب الشاي والدخان؟

-أنت محقة يا أم يوسف /بوزهرة/ لعين... ولا نقدر أن نمسك به.

-أنا لا أرى أن /بوزهرة/ هو الذي أكل الدجاجات.

-لكن بمن تشكين؟

-ابن الحسن- وأنت تعرفه- ماكر كالثعلب، وقد يكون أرسل من يسرق الدجاجات أثناء غيابي وغيابك..

خاصة بعد أن حاول أخذ أرض ابن الصالح ولم يستطع.

-تقديرك للأمر في محله يا أم يوسف... ابن الحسن أراد أن تدب الفتن والخوف في القرية، وبعد ذلك يضعف ابن الصالح، ويأخذ أرضه، ويضمها إلى أرض ابن الأحمد وهو بدأ من دجاجاتنا، لأنه يعرف أننا نعيش من مردود بيضها، وإذا فقدناها سنجوع، وربما نذهب إلى أولادنا في المدينة، وبذلك تضيع القرية، ويبتعد الجيران، وتذهب أرض ابن الصالح... وتيبس الأشجار ويقوى بوزهرة وابن الحسن على الدجاجات وأصحابها، وتصير قرينتنا وشجرة التوت ذكرى من ذكريات الأيام.

/بوزهرة/ لعنة على الدجاجات والقرويين... وتسميته مشتقة من هيئته، فهو حيوان صغير، في ذيله بقعة بيضاء ولهذا أسماه الناس /بوزهرة/ والكثيرون منهم يقرنونه بطريقة عيشه وبالأذى الذي يجره بابن الحسن...

أم يوسف قطعت على أبي يوسف ذهوله وحيرته وهواجسه الخائفة:

-صدقني يا أبا يوسف أن ابن الحسن ألعن من ثعلب /بوزهرة/.

-في المساء عادت سمر... يا أبا يوسف، وهي لم تذهب إلى بيت أهلها خوفاً من والدها.

-أين ستنام إذا لا تنام في بيت أهلها؟

-ربما في بيت كريم أو بيت ابن الحمودة.

-ولماذا لا تذكرين بيت أبي يوسف، فهل ترفضين أن تنام عندنا في البيت يا أم يوسف؟

-لا أعرف... وقد جاء أخوها الأعرج وسألني عنها.

-ما أشقى حياة أولاد ابن الأحمد... سمر من أجمل الصبايا ومن الحسنات في حديثهن وعيشهن مع الناس، لكن حظها تعس.

كانت سمر قريبة من صوت أبي يوسف وسمعت أكثر كلامه، ورأت ضوء سراجها يضيء فضاء أغصان التوتة، لكنها لمحت تغييراً أو حزناً أو خراباً بادياً في دنيا القرية كلها... إلا أنها لم تفهم ذلك التغيير في ذلك المساء... كانت مأخوذة بضجيج أعماقها وبالخوف الشديد من حياتها. كلما حاولت أن تفكر بشجرة التوت وبأبي يوسف، وتنتظر إليهما تصرخ في أعماقها المخاوف، وتضج الانهدامات والفجيرة... لم تكن تبعد عن البيت أكثر من أمتار، كانت أمام بيت ابن الحمودة عند زوجته، لكن خبيتها كانت تسد عليها الأفق وتبعدها عن دنيا شجرة التوت وأبي يوسف... كان الشعور بأن العار يلف عمرها كأفعى طويلة طول الأيام...

فرشت لها زوجة ابن الحمودة حصيراً ووضعت فوقه فراشاً قرب النافذة المشرفة على شجرة التوت وبيت أبي يوسف... طوال الليل لم تفارقها الأحلام المخيفة، وما أن أخذها النوم لحظة حتى تبدى لها والدها يحمل عصاه ويركض خلفها وهي تركض في مسافات القرية... ورأت نفسها تحاول أن تهرب إلى شجرة التوت وأبي يوسف، لكنها لم تشاهد شجرة التوت، ولا أبا يوسف، لأن شتاءً عاصفاً هدم طرفاً من أطراف بيته، وبعد ذلك أخذه أولاده إلى المدينة حيث يقيمون، وقطعوا شجرة التوت قطعاً صعباً...

استمر نومها قلقاً ولم تستطع أن تستيقظ إلا على صراخ زوجة كريم القوي:

-يا جيران... لم يترك/بوزهرة/ ولا دجاجة من دجاجاتي إلا قتلها.

-الشتاء على الأبواب يا أبا يوسف ألا تفكر بدخل بيتك وتطيينه؟
-الهمة تعبت يا أبا محمود... والشتاء مقيت، لأنه يجبرنا على الدخول إلى
البيوت، والجلوس فيها قرب الموقد.
-لكل فصل حال يا أبا يوسف.

-لكن الفصل الذي يتركني قرب شجرة التوت أقرب إلى روعي من الفصل
الذي يبعثني عنها. دار هذا الحديث بين ابن الصبرة وأبي يوسف قرب جذع
شجرة التوت، وابن الحمودة وزوجته يسمعان كل كلمة، لأنهما كانا أمام البيت
يرقبان ملامح الشتاء القادم.
قال ابن الحمودة لزوجته:

-بيت أبي يوسف من البيوت المتينة رغم أنه لا يطينه كثيراً.
-كل شيء في حياة أبي يوسف قوي يا ابن الحمودة، بيت أبي يوسف
وشجرة التوت علامتان فارقتان في القرية كلها... ولم يخطر في بال أحد من
الجيران أن بيت أبي يوسف سينهدم مهما أتت عليه سنون وشتاءات قاسية، وأن
شجرة التوت قد تيبس أو تقطع أو تغيب من دنيا القرية...

-هذا الشتاء قاسٍ وعاصف يا أم محمود.
-أنا خائفة منه على أبي يوسف، لأنني لم أره في عمري مثل هذه السنة
متخوفاً من كلام أولاده وإلحاحهم عليه، ليذهب معهم إلى المدينة... ويترك
القرية... كان صوت الريح قوياً وكان ابن الصبرة يحاول أن يزيد من اشتعال
الموقد، وأم محمود إلى جواره تصحو وتستيقظ. تسهو حتى تهدأ الريح ويبتعد
صوتها، وتستيقظ خائفة حين تتحرك الريح قوية ويعود صوتها مزمجرأً مخيفاً...
بعد إغفاءات متلاحقة قال أبو محمود:
-قومي إلى فراشك يا أم محمود...
-سأقوم... لكن لا تنس أن تنظر إلى بيت الدجاجات، لتتأكد من إغلاقه،
ومن أن /بوزهرة/ ليس موجوداً.

نهض ابن الصبرة، لبس معطفه القديم، ولف رأسه بالشملة المخصصة للشتاء... وفتح باب البيت بتأنٍ خوف أن تدفعه الريح وتدخل إلى البيت، وتطفئ الموقد وتتشجر جمراته في أنحاءه...
نظر إلى بيت ابن الصالح فألقى ضوء قنديله شحيحاً، يكاد لا يبدو...

لم يرتعب ابن الصبرة من شدة الريح واسوداد الليل... فقد خبر الشتات وعرف رياحها ولياليها الداكنة، لكنه حين أراد أن ينحدر باتجاه بيت البقرات مشى بتمهل حذر أن تنزلق قدمه، أو تصطدم بشيء...
تأكد من أن باب بيت البقرات والدجاجات مغلق، وحاول أن ينظر إلى الدجاجات بحثاً عن /بوزهرة/ فلم يصادف إلا الليل الداكن، والبرد. حاول أن يصغي إلى أي صوت أت من جهة الساقية أو من جهة بيوت الجيران، لكنه لم يسمع إلا صوت صفير الريح... تمنى أن يرى ضوء قنديل أبي يوسف أو يسمع صوته أو يلمح أغصان شجرة التوت، لكن تمنياته ذهبت مع الريح... لأن صوت الريح كان أقوى من أي صوت، وستار الظلمة كان كثيفاً، لا يسمح للناظر أن يرى أضواء القناديل البعيدة... قال ابن الصبرة، في نفسه: "لا يمكنني الآن أن أذهب إلى بيت أبي يوسف، لأن الريح عاتية، ولأن السماء ستمطر قريباً، ولأن أم محمود تخاف إن تركت البيت وذهبت في هذا الليل الداكن البارد والريح تعصف بكل شيء."

جاء الأولاد ضحى والقرية تنتظر بعيون محزونة إلى جهة بيت أبي يوسف الذي دعموه وأعادوا بناء حائطه بسرعة... جاء الأولاد والحائط قد أعيد بناؤه...
لكن الريح والشتاء بقيا...
قال الأولاد لأبي يوسف:
-ستذهب معنا أنت وأمننا... وتعيش معنا في المدينة...

- لا يا أولاد لن أذهب معكم، وأمكم لن تذهب...
- تذهب وتبقى عندنا حتى ينتهي الشتاء.
- لا يا أولاد... لم يبقَ من العمر إلا بقية... أحب أن أعيشها حيث عشت عمري كله تقريباً...
- إذا ذهبت معنا يمكنك الرجوع إلى هنا حين يسمح الطقس بالرجوع، وينقطع المطر، وتهب الرياح...
- إذا ذهبت معكم من أين لي أن أخرج كل صباح إلى الدروب وأزور بيوت الجيران، وأرى شجرة التوت والطلعين والنازلين والرائحين والغادين.
ابن الحمودة وابن الأحمد وابن الصالح ردوا بلسان ابن الصالح:
- أبو يوسف جارنا وقربنا من يوم بعيد، ولا نريد أن يتركنا، ونخسره. لكن الأولاد لم يقبلوا بأن يبقوا والدهم في البيت الترابي في الشتاء العاصف الماطر، لأن الناس يلومونهم... حاول الجيران جميعاً أن يمسكوا بأبي يوسف، أن يتعلقوا بثوبه وشملته راجين أن يبقى وتبقى إشراقته السمحة تفتح نهارات القرية، وتنتشر في دنياها البهجة، لكن القدر والحظ والشتاء والأولاد... كل شيء كان ضد القرية...
قال للجيران وهو يفكر بالمدينة وعيشها الذي لم يألفه:
- صدقوني - يا جيران - إن قلت: إن قلبي متعلق بحجارة البيت والعيان... بكل صوت يطلع من هذه الضيعة... ولن أهجر بيتي وشجرة التوت وهذه القرية إلا لأيام قليلة...

أخيراً غادر أبو يوسف الضيعة وشجرة التوت وبيت الدجاجات الخشبي والدروب المؤدية إلى بيوت الجيران... حاول أبو يوسف أن يمسك بجذع شجرة التوت التي عاشها منذ طفولته... والتي عرفت حياته صباحاً صباحاً ومساءً مساءً، وجوعاً جوعاً، لكن الأيام وتبدلات الدنيا كانت أقوى من أبي يوسف وجعلته يذهب إلى أولاده تاركاً القرية في جلبة لا تنتهي..

أم محمود، بعد أن ترك أبو يوسف القرية بشهور، ظلت تأتي بالقمح واللبن وتأكل قرب التوتة في المكان الذي تعودت أن تجلس فيه دائماً، تبكي وتذكر... حاول الجيران إقناعها بالرجوع عن حزنها وأسائها، لكنهم لم يستطيعوا:
-أنا لا أستطيع أن أنساها، وكلما نظرت إليها تمر بقلبي عاصفة من البكاء... إننا بعد ذهابه لم نرَ الخير...

. يا الله يا أم محمود... هذه حال الدنيا تتقلب من الفرح إلى الحزن... من الشدة إلى الرخاء... من المصائب إلى الفرح والحمد لله هو بخير وعيشه عند أولاده أفضل له من أن يظل تحت الوكف والبرد...

لكن محاولات الجيران ذهبت دون جدوى لجعل أم محمود تتسحب من دائرة حزنها إلى دائرة النسيان... ومثلها كل جيران شجرة التوت بقوا يتذكرون أيام أبي يوسف وشجرته ومصطببتها، ولا شيء يقدر على جعلهم ينسون...
وبقيت التوتة وبقيت أسراب العصافير ترفرف فوقها وتخفق بأجنحتها عبر الأفق، وتغرد أغرودة الحياة والحنين... مع طلوع الشمس تستيقظ فلا تترك أغصانها حتى المغيب، وكأنها تعيد احتفالات مضي عهدها وتستنكر ماضياً موغلاً في العيش والأيام...

طائر كبير، جناحاه أخضران يشبهان البحر والبراري كأن عليهما زغباً من عشب نابت بعد مطر طفيف، بقي يحط على الغصن الذي كان يجلس تحته أبو يوسف، ويغرد محزوناً كما قال ابن الأحمَد:
- ما رأيت أسيّ تحمله الطيور، كذلك الذي يحمله هذا الطير. في صوته خشوع العارف بما جرى...

الفصل الثاني

لزم يوسف بل حرصه على وصاله مع قريبة سبهه التثورية هو الذي ألصقه بالدكان والعمل به.

الدكان غرفة ترابية، بابها مفتوح على الدرب الواصل بين الحارة التحتانية والحارة الفوقانية. ومن جهة مفتوح على مصطبة بيت سبهه وأخيها صالح. وكانت المصطبة محط اهتمام وحب يوسف، لأن قريبة سبهه لا تتقطع عنها، ونبض قلب يوسف لا يتوقف تعجله وقلقه ما دامت الشمس تشرق عليه من جهة المصطبة. ويزداد قلقه أكثر وأكثر حين تأتي الحبيبة، تبغي الابتياح من الدكان، يحاول يوسف أن يقول الشعر، وهو يكلمها، فلا ينطلق لسانه... تركها نظراته فيضعف نطقها، ويزداد ألقها، وكأن الخفر كياسة تضاف إلى كياستها، فيعلق قلب العاشق أكثر بالعشيقة.

تشتري حاجاتها، وتطلب من يوسف أن يكتب أمام اسم عمته سبهه تلك الحاجات وتكلفتها، فيرفض كتابة اسم عمته ويكتب اسمها، ولا يكتب أمامه اسم الحاجات وتكلفتها، بل يخرش خريشة لا يعرفها هو نفسه ولا هي تعرفها.

بعد لحظات من خروج قريبة سبهه، وصل ابن الأحمد على غير عادته حاملاً كيسه الأبيض المملوء بما لذ وطاب وبغير اللذيذ والطيب.

كيس ابن أحمد مشهود له بالشجاعة والغنى والتنوع، يتسع في أكثر الأحيان لعب الحلاوة، والفاكهة والأحذية العائدة من الإصلاح، وأحياناً الأحذية الجديدة...

ينتقي ابن الأحمد حذاءه بعناية خاصة يختاره من المتانة بمكان، ولا بد لأي حذاء يريد أن يلبسه أن تتقدمه فتحات خاصة بالرباط، وإلا فلن يقبل انتعاله وقد

سأله يوسف بو حمود مشيراً إلى الحذاء الذي ينتعله ابن الأحمد.
لم تختار هذا النوع من الأحذية؟

أجابه:

. هيبة الحذاء من رباطه.

ضحك يوسف ضحكته المعهودة، التي لا تكاد تبدأ، حتى تضيع في زحمة
مخاوفه وأحزانه، لكنها هذه المرة اختفت في زحمة تلهفة وقلقه إزاء الحبيبة التي
تخرج إلى المصطبة بين الحين والحين.

ابن الأحمد لم ينتبه إلى نظرات جاره، لأنه لا يفهم كثيراً نظرات الحب. فأهم
فنون الغرام بالنسبة له هو أن يتمكن الحبيب من قرص من يحب وإلا فالحب
عنده يبقى ناقصاً وقاصراً وتعبساً.

همّت سبهه إلى الجرة التي أمام الباب، فلاح لعينيها الأفق جميلاً وتناهى
إلى سمعها صوت ابن الأحمد، فعرفت أنه في الدكان، وتأكد لها وجوده فيها،
حين رأت الكيس الأبيض المربوط، الممتلئ بالحاجات المتنوعة. ملأت سبهه
الإبريق من فم الجرة وأسلمته لقرببتها، فدخلت القربة الحسنة، التي أشعلت نار
الهوى في فؤاد يوسف بو حمود، وصوت سبهه يسبقها وهي تنادي أخاها يا
صالح... يا صالح.

رد صالح:

. ما بالك يا سبهه تنادين على أخيك الصالح؟

عرف ابن الأحمد ويوسف أن صالح الجبيلي أو صالح التنوري في الحواكير
القريبة، يلم أوراق التبغ اليابسة، أو أنه يرعى الخراف والبقرة، التي يعتني بها كي
لا تجوع أو يصيبها الهزال، فيسقط في مستنقع العوز والتهلكة...

والجبيلي شقيق سبهه، معروف بطباعه العجيبة في حكاية الأحداث التي
يعرفها أو يتخيلها. وهو يحاول أن يتفصح في الحديث، فلا يستمر تفصحه قليلاً
أو كثيراً، لأن صدأ التعاسات في عمره وروحه وحلقه، يقطع عليه أمر الفصاحة.
فغصة الشقاء لا تدع لأي صوت أن يعلو صوتها.. وصوت الشقاء ليس فصيحاً.
بعد طول نداء ورد بين سبهه وأخيها، سعد عبر دريب الحواكير وأمامه
الخراف والبقرة.

أحفة الحواكير، المكسوة بعشب الربيع، تبدو كأنها ترتدي وشاحاً صوفياً كبيراً

أخضر اللون... والحواكير تتراعى حتى أرض وابن الصالح وابن الأحمد، التي استولى عليها ابن الحسن.

عينا يوسف لا تعرفان النظر إلى غير المصطبة، وأذناه تحاولان الإصغاء إلى كل همسة أو حركة، أملاً منهما في أن توفقا إلى صوت الحبيبة التي غدت تسرح في باله وتمرح كسرحان خراف الجبيلي في الحواكير والمروج المعشبة. يحس يوسف حين تبين قريبة سبهه أن سرياً من طيور الهناء والأمل، حلق في خافقه وروحه، وحين تتكلم يحس بأن صداحاً عتيقاً استوطن وجدانه، فأحبه.

ابن الأحمد لم تشغل باله الشواغل ذاتها، وهو منذ عهد غير قريب طلقت نفسه أمر العشق. وكيف يعشق وعمره مكبل بالأسى الضارب والصراخ الدائم، والعشق يحتاج أحياناً إلى الصوت الخفيض الحنون؟ ابن الأحمد ودع الحنان، قبل أن يحتفل به، ولعل هذا الوداع كان قبل ولادته. وعداؤه مع الحنان يظهر في ملامح وجهه، وفي نظراته الأسيانة، وهو يعاين الحواكير والمروج وحفاف أرض أبيه العالية.

دفع الجبيلي بالخراف إلى الغرفة الخربة القريبة من المصطبة... وأغلق وراءها الباب، ثم انشغل بربط البقرة في شجرة التين.

عادت سبهه إلى المصطبة وعادت شياله قريبتها، التي عذبت روح يوسف حباً وشوقاً واحتفاءً. صوت الكؤوس أيقظ في ابن الأحمد صورة شجرة التوت وأبي يوسف والمصطبة، التي كانت تلم الجيران، قدر أن سبهه نادى أباها صالحاً ليدعوها إلى شرب الشاي، ويرحب بهما خاصة أن علاقة طيبة كانت تربطه بوالد ابن الأحمد.

صدقت نبوءة ابن الأحمد، وصدق صوت الكؤوس. أقبل صالح محني القامة أعشى العينين قليلاً، قدماه أتعبتهما الدروب التي عبرها وراح فيها وجاء...

باب الدكان مفتوح تحيط به الرفوف المثقلة بالحاجات والأغراض. في صدر الدكان، رفوف عالية وضع عليها الدكاني علب الراحة والحلاوة، وغيرها... وعلى أرض الدكان كرسي كبير له مسند واسع وقوائم متينة ترتفع عن الأرض قليلاً... هذا هو كرسي الحلاقة. فيوسف لا يكتفي بالبيع، بل يحلق لأصدقائه وللجيران ولكل راغب بهندسة شعره وتزيينه.

إلى جوار كرسي الحلاقة، تستريح عدة الحدادة البسيطة. مطرقة كبيرة قريبة الشبه بمقدم رأس ابن الأحمد ومطرقة صغيرة وأسياخ متفاوتة السماكة والأحجام

من القصدير وبابور صغير متشح بالسواد دائماً كملامح صالح الجبيلي وشملته الضاربة إلى السواد، رغم أنف الدهر.

والمميز في دكان يوسف بو حمود أنه جامع شامل لكل ما تريده الحارات الفوقانية والتحتانية والشمالية والجنوبية والغربية والشرقية، ويوسف ملم بخبرات وحرف كثيرة، هو حلاق وحداد وطبيب من طراز خاص، إذا دعت الحاجة. ويميز الدكان أنه عند ملتقى المفارق وأنه يشرف على الحواكير وجانب من بيوت الحارات وعلى المروج والنبع القريب.

وصل صالح الجبيلي فرآه يوسف وابن الأحمد، قبل وصوله لأنهما كان ينتظران قدومه. نهض يوسف مسرعاً على غير عادته ورحب بجاره ومثله فعل ابن الأحمد:

. أهلاً بصالح.

. عليكما السلام وطيب الكلام يا سادة يا كرام يا أبناء الكرام.

ظل صالح محني القامة، رغم فصاحته، وابن الأحمد حاول أن يضحك أو يبتسم فلم يقدر لأن ابتسامته المرجوه، اصطدمت بأكداس التعاسات، فضاعت، كما تضيع دائماً شحاطة زهوره بين أغراض زوجها ابن الأحمد، التي يدفع بها في الكيس الأبيض الكبير، ثم لا يعرف كيف يحددها ويوزعها إلا بعد أن يخرج كل ما في الكيس.

كاد صالح يصطدم بجرة الدكان المستندة إلى جدار الدكان الخارجي. قال له ابن الأحمد:

. هل ظننت أن الجرة شجرة دلب مليئة بالطيور؟

رد صالح:

- أنت تعرف علاقتي مع والدك يا ابن الأحمد ام أن غضب الدنيا عليك أفقدك وعيك ومعرفتك؟

. أعرف، نعم أعرف أنك كنت صديقاً لأبي...

- وتعرف أنني كنت أذهب وإياه إلى شجرات النهر الكبير بحثاً عن طائر الدلبات الكبير.

قطع يوسف حديث ابن الأحمد وصالح. وقطع الحديث هين على يوسف وكأنه يقطع قضيب القصدير، ليلحم لأخت صالح غطاء القنديل، أو لابن الأحمد

قائمة البابور، التي لا تكاد تهدأ حالها لكثرة الاستخدام، وكاد صالح ينسى لماذا جاء إلى الدكان لولا أن أتاه صوت أخته:

. أنسيت يا صالح لماذا ذهبت، أم أن ابن الأحمد ذكرك بأبيه وحياتك معه؟
أراد صالح أن يلتفت إلى حيث وقفت أخته لكن صوت يوسف أوقفه عن فعل ذلك:

. نذهب معك أو تجلس عندنا ونشرب الشاي؟

. سبهه وشياله بانتظارنا لنشرب عندنا على المصطبة، تحت أغصان شجرة التوت. قال ابن الأحمد وقد نهض ما أمكنه النهوض فبانّت لعينيه الأشجار والبيوت والمروج:

. مصطبة بيتك شبيهة بمصطبة بيت أبي يوسف.

. لكن أبا يوسف ترك بيته، وأبناؤه هل اقتلعوا الشجرة وهدموا البيت؟
. الشتاء القاسي الذي مر علينا هذا العام جاء مخيفاً وصعباً وهدم البيت قبل أن يهدمه الأولاد.

شارك يوسف:

. بعد ذهاب أم يوسف مع زوجها، خسرت بيضات دجاجاتها.

قال ابن الأحمد:

- أنا خفت أول الأمر أن نخسر البيضات لكنني عرفت فيما بعد أن أم يوسف أكلت أمر دجاجاتها إلى زوجة كريم.

قال يوسف:

. فعلت خيراً، ولكن الذي يخيف في أمر الدجاجات هو ابن آوى (أبو زهرة).

أخذ القلق والعشق يوسف الدكاني أو يوسف بو حمود، وهو يلمح شياله تحمل الكراسي الصغيرة من داخل البيت إلى حيث فرشت الأغصان ظلالها، فوق المصطبة، فخفت من حر الشمس المزعج.. وكيف ينزعج يوسف بو حمود وشياله أمام عينيه وقبالة روحه يخاطبها في صمته وبناجيها؟

نسي ابن الأحمد في زحمة، الأحاديث أن ينادي زوجته زهوة لتحضر في الحال وتحمل الكيس الأبيض.

فكر أن يرفع صوته منادياً لكنه خشي أن يخيف المجاورين ويفزعهم فلا يقدرُوا بعد ذلك على شرب الشاي والتلذذ بها.

صوت ابن الأحمد قوي وجهوري إلى حد بعيد، حتى إنه حين ينادي يعرف كل من في الحارات أن ابن الأحمد حضر من المدينة، حاملاً كيسه الأبيض وسلته القصبية. والجميع يعرف ماذا يريد ابن الأحمد، حين ينادي.. وهو ينوع في نداءاته بما يلائم الحال الذي هو فيه والأمر الذي يريده:

حين ينادي زهوه، وهي على النبع ينادي بصوت فيه خشونة مختلفة عن الخشونة التي تكون في صوته وهو ينادي هذه الزوجة المعذبة، حين يكون عائداً ينادي من المدينة حاملاً الكيس والسلّة القصبية.

ونداؤه وهو في أرضه خشونته مختلفة عنها وهو ينادي من أمام البيت، وصوته حين يصرخ في وجه أولاده وهو قليلاً ما يوفق إليهم، ليصرخ في وجههم، لأنهم يخافون من مواجهته حتى في حالات سروره النادرة ندرّة طائر النهر الكبير الذي عاش أبوه والجبيلي يبحثان عنه. حتى في هذه الحالات لا يجروون على الاقتراب من أبيهم اقتراباً مطمئناً، إذ كانت أقدامهم دائماً مهياًة للهرب، وجلودهم خائفة من لسع عصاه.

صالح لا ينظر كثيراً إلى الوجوه، لكنه لأول مرة وجد نفسه ينظر نظرات محددة إلى يوسف وابن الأحمد، وكأن رغبة كانت غافية، تجلت في نفسه.

أراد معرفة جاريه وأراد مقارنتهما بوالديهما، خاصة مقارنة ابن الأحمد بأبيه:

تراعت صورة أحمد السعيد والد ابن الأحمد، تراعت له قامته الناحلة الطويلة وملامحه المعذبة... لكنه كان لا يهاب الحياة... سريرته ليست قاحلة كسريرة ولده... سريرته كانت خصبة بالنبوءات، ورأسه زاهية بالخيالات الشجاعة...

قال صالح في نفسه:

"ليس كأحمد السعيد أحد، في سريرته وحياته، بنى كوخه في الأرض العالية وبنى قريباً من الكوخ البيت الترابي المشهور، اختار مكاناً لائقاً للبيت والكوخ، واختار حياة رضية، ثراؤها يأتي من سريرته الخصبة بالنبوءات والحب".

شباله تجاوزت الثلاثين، وازدادت عذوبة روحها وكياستها وأنوثتها نضجت... فأشعلت في يوسف بو حمود نيران لهفة واشتياق، لا يعرف كيف يطفئها، أو يتفادى أذاها على الأقل.

ابن الأحمد بقي يزم شفثيه وكأنهما فوجنتا بابتسامه طارئة أو بقبلة من نوع خاص، فأرادتا الاعتذار، والجبيلي بقي يتكلم برغبة عن صديق أيامه وحياته والد ابن الأحمد:

أحمد السعيد هو أول من عرفت من أهالي قرية شجرة التوت. هل تعلم هذا يا ابن الأحمـد؟

ينتبه ابن الأحمـد ويدع المجال متاحاً لشفتيه أن تعودا من رحلة الصراع الدائم مع أية ابتسامة، تود الظهور، ينتبه ويسأل الجبيلي:
.ومتى عرفت والدي؟

.كان لوالدك صديق عزيز على روحه، في قرينتنا ... وصديق والدك قريبي وجاري، وكنت ألتقيه في كل مرة يزوره.

.ومن هو هذا الصديق؟

. هو عم أسعد الشحاذ وأبو زوجة كريم قريبيك وجارك.

. هو من ضيعة... ..

لم يتابع ابن الأحمـد سؤاله لأن شعوراً قاسياً بالمهانة سد عليه حلقه ومنعه من الكلام.

. أنت تريد أن تسأل عن زوج ابنتك التي هربت منه؟

. نعم يا جبيلي.

شعور ابن الأحمـد بالمهانة، يشبه عضات كلب مسعور، وقد حاول أن ينسى هذا الشعور لكنه لم يقدر... عاد الجبيلي إلى الحديث، وابن الأحمـد عاد إليه شعوره بالتعاسة، أما يوسف الدكاني، فظل منصرفاً بنظراته إلى شياله التي أخذها الحديث مع سيهه.

شياله وسبهه جلسنا قريبتين من الجدار، فأسندت كل منهما ظهرها إلى الجدار... والجبيلي وابن الأحمـد ويوسف تحلقوا حول الجذع القديم.

عاد الجبيلي يروي سيرة علاقته بوالد ابن الأحمـد:

كان أبوك شجاعاً، لا يخاف العدا، ولا يحسب للمسافات حساباً.

يمتطي ظهر حصانه الأسود وينطلق إلى ضيعتنا... فيستقبله عم أسعد بالترحيب وكان يشاركنا جلستنا هذه عبـدو الشاعر شقيق زوجة كريم.

سأل ابن الأحمـد:

. وأسعد الشحاذ ألم يكن يشارككم جلساتكم.

. أسعد مقامه ليس من مقامنا هو مثلك همه في كيسه.

زَمَّ ابن الأحمَد شفثيه زم الغاضب.

. هل تعبثني مثل أسعد يا جبيلي، وهل تعبث كيسي مثل كيسه؟

. أنت خير من أسعد، لكن كيسك يشبه كيسه.

ازداد غضبه ابن الأحمَد لأن الجبيلي استمر في موقفه السيئ تجاه كيسه، وقد حاول أن يتذكر صورة أسعد، وهو يحمل كيسه، ويسعى في جهات القرية وحراراتها ودروبها بحثاً عن القمح وغيره، لكن محاولته باءت بالفشل لأن صوت أسعد جاء من جهة الحارة الفوقانية:

- أين أنت يا بو حمود: "دكانك مفتوح والقلب مجروح وحببي عم يجي، وحببي بيروح... وحببي يتركني... عم سوح... والقلب مجروح... حببي شيال حببي عالبال... وراح أرسل مرسال يحكيو عالروح... والقلب المجروح... دكانك مفتوح... دكانك مفتوح...".

دوي صوت أسعد في كل مكان من القرية وأخبر من ليس يخبر بحكاية غرام يوسف وشياله ولم يكتف بالأغنية بل ختمها بختام خاص:

"يا بن حمود لا تحزن كثيراً

حبيب الروح رح بيعث جواب"

شياله فهمت كل كلمة قالها أسعد وقد أخذها الخفر حيناً والنظر إلى يوسف حيناً. تتهدات يوسف كانت سهت سهواً يسيراً لولا صوت أسعد الذي فضح ما استتر من أمره وأمر شياله...

هبط أسعد الحجارة المرفوعة إلى جوار الدكان، كدرج بانس، ليس ينفع في تيسير خطوات الآتين إلى الدكان أو أي بيت من بيوت الحارة. بل يعرقل الخطوات ويوقع الأذى بالمسرعين.

أسعد هبط متمهلاً وما نفعه في العجلة والإسراع؟ هو وكيسه علامتا فقر وعوز ولن يسرق أحداً منهما سارق، إلا إذا كان جاهلاً حياة أسعد وواقع حاله وحال كيسه.

وهو لا يتعجل في هبوط الحجارة المرفوعة قرب حائط الدكان، لأن الحجارة هذه أهدته يوماً سقطت، أجلسه وقتاً غير قصير لا يقدر على المشي المتوازن. وهو في كل الحالات لا يملك أي رصيد من التوازن.

ثم إن أسعد يفهم جيداً بأن (العجلة من عمل الشيطان، والتأني من عمل

الرحمن...).

وفهم (بأن السلامة تأتي من التأني والندامة تأتي من العجلة) خاصة إذا كانت السرعة تتعلق بهبوط الحجارة المضطربة بشكل دائم.

وهو يمشي غير متوازن وكيف يتوازن ونسغ حياته البؤس والعوز... جاكيتته تكتنز من الوسخ ما يكفي لعشر سترات. وقميصه ليس خيراً من الأنسة جاكيتته. وينظونه تاهت فيه بقع الزيت الدائمة لأن أسعد في موسم قطف الزيتون وعصره، يستبدل الكيس بـ (تتكة) يسعى بها على المعاصر لعله يوفق إلى ملئها... وحين يدركه الجوع، وهو مدركه على مر الساعات، يبحث عن رغيف... وهذا يحق له...

لأن الجميع يعرفه... يطلب رغيفاً من أي رجل أو امرأة... وحين عثوره على الرغيف ينشغل انشغالاً تاماً بأكل الزيت، فيأكل ما يأكل، وينطف على ثيابه ما ينطف.

الجبيلي وأسعد عاشا أياماً طويلة معاً في ضيعة أبو عبدو الشاعر أو ضيعة النبع. وهذا هو اسمها القديم ثم أضافت لها الأيام اسماً آخر، ضيعة الصديق الصدوق والذي سماها باسمها الجديد هو أحمد السعيد والد ابن الأحمد.

جرح ابن الأحمد الذي سببته له كلمات الجبيلي عنه وعن كيسه لم يندمل وقد زاده ألماً حضور أسعد وكيسه.

راقب ابن الأحمد أسعد وكيسه مراقبة دقيقة وخاطب نفسه:

"هل أمشي مثل أسعد؟ وهل حذاؤه المخلع المرقع مثل حذائي؟ حذاؤه من النايلون وحذائي من الجلد... سامحك الله يا جبيلي يا صديق والدي كيف سمحت لنفسك أن تقارب بيني وبين أسعد ثم تابع مخاطبته لنفسه:

وينظلون أسعد ليس كبنظلوني، وسترتة ليست كسترتي... وهو معذب مقهور يسعى إلى البيوت، ليطلب القمح والزيت والخبز والثياب، أما أنا فبيتي في قرية شجرة التوت معروف وبابه الخشبي لا يمكن لأحد أن يفتحه إلا بإذني، أما هو لا بيت له ولا باب يغلقه على أغراضه ومن أين له الأغراض؟

وكيس أسعد ليس يشبه كيسني في شيء... كيسني أغسله كل أسبوع أما كيسه فلا يغسله... أخطأت يا جبيلي".

وصل أسعد إلى المصطبة بعد أن عرج ما يكفي لينبه الناظرين إلى عرجه، أسعد خلق لم تهده الدنيا إلا العرج والعوز واللعب الذي يرشه على أي قريب من

فمه... ثم يتبع العرج بالسعال العالي ليؤكد مجيئه.

تتهبت سببه لحضور قريبها أسعد ودعته إلى الجلوس على كرسيها قرب (شياله) فسارع أسعد حالاً إلى الجلوس ليظفر بمشاهدة شياله عن كثب. صفت رائحته غير المسعدة للنفس والأنفاس، والمؤذية للروح والإحساس، صفت رائحته أنف شياله صفعاً ليس هيناً.

الجبيلي ويوسف وابن الأحمد ردوا تحية أسعد المصحوبة باللحاح قال أسعد:

. كيف أحوال العباد في البلاد؟

ردوا عليه:

أهلاً بأسعد..

ثم اتبع يوسف:

. أهلاً بأسعد الذي صوته يردد.

. أنت الحبيب يا يوسف وأريد منك علبة راحة وعلبة بسكويت.

. لماذا تريد هذا يا أسعد؟

للحبيبة الغالية.

ضحك يوسف ضحكته المعهودة التي لا تكاد تبين حتى تختفي، أما الجبيلي فلم يضحك. حتى الضحك لا يعرف على ملامح الجبيلي بل إن الضحك والأسى في ملامحه لا يعرفان ولا يقدر الناظر إليه أن يميزهما. ملامحه تشبه إلى حد بعيد ملامح جذع سنديانه، شققة توالي الفصول عليه، فلا يعرف أخضر الجذع من يابسه... وكذا أمر ملامح الجبيلي... الفرح متداخل مع الحزن والحب متداخل مع الكره، كوجبة معاصرة لا يعرف أساسها ولا الأطعمة الداخلة فيها...

شياله واجهت بصبر رائحة أسعد الشحاذ المختلطة اختلاطاً فظيماً، برائحة العرق القديم، المتشبه بجلده إلى حد لا فلات للتعرق من جلد أسعد ولا لجلد أسعد من التعرق... رائحة هذا التعرق ليست وحدها المتمسكة برفقة جلد أسعد، بل تخالطها رائحة التعرق الجديد الذي لا يتوقف جلد أسعد عن إفرازه لكثرة حراكه وسيره.

وهناك رائحة الأوساخ المتراكمة على ثيابه حتى صارت جزءاً من ثيابه ولوناً من ألوانها.. وأسنان أسعد أكثر فظاعة من أية فظاعة أخرى.. فهو يتركها أبداً دون أن يسمح ليد النظافة أن تمتد إليها حتى إن قريبه عبدو الشاعر سأله يوماً:

. لماذا لا تتظف أسنانك يا أسعد، فرائحة فمك مزعجة؟

. أنت لا تعرف الأذى والمرض إلا حين تكثر من اللعب بالأسنان.

أسعد يعتبر النظافة لعباً مؤذياً للأسنان. أرادت شياله أن تهجر كرسبها هرباً من رائحة أسعد لولا أنه أقبل عليها يكلمها هامساً فجاء همسه صراخاً عالياً مفزعاً:

. ألا تذكرين الأغنية التي كتبها لك ابن عمي عبدو الشاعر؟

عبدو الشاعر هو قريبي وقد رجع من سفره.

تذكرت شياله عبدو الشاعر وقت كان يزور أهلها ويغنى لها أغنيات لم

تسمعها من سواه...

تذكرت قامته الممتلئة وروحه المشبعة بالحب والغناء... تذكرت عينيه اللتين

تضجان بالكلام والشوق...

نظرت إلى يوسف وقريبها الجبيلي وابن الأحمد وكأنها لا تتظر. حتى رائحة

أسعد ابتعدت عن أنفاسها ابتعاداً يسيراً... حين تذكرت عبدو الشاعر قالت في

سرها:

"حين ينظر عبدو الشاعر لا أحد يعرف أن ينظر مثله، يقول في نظراته

كلاماً حنوناً، وحين يغني صوته يطرب الروح وحين يحب ما أجمله وأحلاه...

لكنني لم أره منذ سنوات وقد يكون أحب وتزوج". أسعد لم ينتبه إلى شياله ليعرف

انطباعها عن قريبه (عبدو الشاعر) لأن كل همه تحول إلى كأس الشاي الكبير

التي قدمتها سببه له ومما زاده انتباهاً أن كأس الشاي جاءت ومعها كعكة

محترمة خصت بها سببه أسعد وحده دون الآخرين.

وقد أقبل على الكعكة والشاي دون أن يتقدم بالشكر لقريبته. أطلق العنان

لفمه لكي يعض الكعكة وأهمل كل أمر خارج ذلك، وقد شكت الكعكة من سوء

تعامل فمه معها، لكن شكواها لم تسمع لأنها ضاعت هي وشكواها في بطنه

الموقر قليلاً جداً جداً.. بطن أسعد مستعد لاحتواء أي طعام أو شراب يمكن الفم

أن يتعامل معه.. حتى حذاء ابن الأحمد إذا تمكن يوماً من عضه فبطنه كفيـل

باحتوائه والعمل على هضمه، وإذا حصل هذا فحذاء ابن الأحمد سيكون فقده

صعباً وسيقوم برثائه..

حين أنجز عض الكعكة التفت إلى سببه فألفاها جالسة إلى جوار شياله

فناداها:

. الكعكة لا تكفي لبطن أسعد.

انتبه الجبيلي لكنه لم يوقف حديثه عن أيامه مع أحمد السعيد وصديقه والد زوجة كريم وعبدو الشاعر. أما ابن الأحمد فقد سرق صوت أسعد إصغاءه لأن كيسه مزود ببعض الكعك...

خشي ابن الأحمد أن يلمح أسعد الكعك في الكيس، فيكون الضحية... ازداد ارتبائه ولم يخلصه من أزمته إلا صوت (سبهه):

. ألا تسمعون مثلي أصواتاً عالية، تأتي من قبل شجرة التوت.

سأل الجبيلي:

. أية شجرة التي تذكرينها؟

هناك شجرة واحدة، معروفة ومعهودة يا صالح هي شجرة ابن عم يوسف وابن الأحمد. ألا تذكرها يا يوسف؟

أجاب يوسف:

. كيف لا أذكرها وجذعها إلى الآن يفرع.

ابن الأحمد همّ بالنداء على زوجته لكن الأصوات العالية عادت ثانية...

أسعد لم يشغل باله كثيراً... بالأصوات والضجة، بل الذي استرعى انتباهه هو كيس ابن الأحمد، والأغراض التي فيه. واسترعى انتباهه أكثر كيس الكعك الذي عاينه داخل الكيس الكبير...

أرادت شيا له سؤال أسعد عن (عبدو الشاعر) لكنه بقي متوجهاً بنظراته واهتمامه إلى جهة كيس ابن الأحمد، ولعله فكر في أن يبدل كيسه به، لكن حذر ابن الأحمد وحرصه منعاه من الإقدام على ذلك. عادت الأصوات أكثر صخباً وضجة... وازداد حضور شجرة التوت وصاحبها في ذاكرة يوسف وابن الأحمد وسبهه، التي ربطتها علاقة طيبة بأمر يوسف...

الجبيلي انتبه إلى ضرورة تحويل الحديث إلى شجرة التوت وأيامها وأيام صاحبها... وفعل ذلك ببراعة المتحدث الذي يحب أن يستمر بالكلام... انتقل الجبيلي من قصته الطويلة مع أحمد السعيد وعلاقته بضيعة النبع ووالد (عبدو الشاعر) إلى شجرة التوت وأيامها.

الفصل الثالث

نظرت زوجة ابن الحمودة بأسف ومرارة إلى ما بقي من بيت أبي يوسف
وقالت لزوجة كريم:

- ما الذي فعلته الدنيا بأبي يوسف: أولاده أجبروه على هجران بيته وقريته
وشجرته، وليتهم اكتفوا بذلك.

قالت زوجة كريم:

. ليته لم يوافقهم رأيهم، ويهجر القرية.

. لم يستطع.

لم تتابعا الحديث لأن صوت ابن الأحمد جاء صاخباً، وهو ينادي ابنه:

. يا قرميد... أسرع إليّ بالشاي والطعام.

عادت زوجة كريم إلى الكلام:

. ابن الأحمد أمره غريبة، ينادي بصوت عالٍ مسموع للغادي والرائح، ويشرح

ويفصل، وكأنه جالس في البيت، يتكلم مع زوجته.

. هذا طبع ابن الأحمد، ولا يعرف أن يغيره.

- أذكر والده، كان مختلفاً عنه... هل تذكرينه أنت؟

. كيف لا أذكر أحمد السعيد، الأرض التي كان يزرعها أبي، كانت إلى جوار

أرضه؟!.

. أنا أذكره، كان يزور أبي... وكانت كل ضيعتنا تحتفل بمجيئه وكنا نحن

الأولاد نجلس قريبين منه لنستمع إلى حكاياته وأحاديثه.

. هو يشبه أبا يوسف.

. أنت على حق، إنه يشبه أبا يوسف، ولم يوفق بأولاده مثله مثل أبي يوسف.
. أخطأ أولاد أبي يوسف بهجرهم القرية.
. ولم يكتفوا بذلك، فقطعوا جذع الشجرة التي كانت أقدم أشجارنا وأكبرها.
- واختصموا مع بعضهم بشأن الأرض التي أمام البيت... من جهة الغرب
بانث زوجة يوسف بو حمود، تمشي وثيدة الخطوات، فانصرف الحديث إليها:
قالت زوجة ابن الحمودة:

. هل سمعت أن يوسف بو حمود يحب (شياله) قريبة الجبيلي؟
. سمعت من كريم.. هو لم يخبرني، لكنني سمعته يقول ليوسف:
. عار عليك أن تتزوج غير زوجتك وتهمل أولادك.
لكنني لم أكن أعرف أن المقصود بذلك هو (شياله).
. منذ وقت بعيد لم يزرك أخوك (عبدو الشاعر) لقد اشتقنا لغنائيه وحكاياته.
. سافر... لكن أسعد أخبرني أنه عاد من السفر.

تترامى الكروم والغابات والتلال، بين ضيعة النبع وقرية شجرة التوت، والدرب
الترابي الواصل بينهما طويل ومتعرج وغير مأهول، لكن أحمد السعيد كان يقطعه
ماشياً أو راكباً الحمار الأسود، دون أن يحسب للمسافات حساباً، وقد سمي الدرب
فيما بعد باسمه، لكثرة ذهابه وإيابه... هذا ما يعرفه معرفة أكيدة الجبيلي، وابن
الأحمد وأبو يوسف وغيرهم، لكن زوجة ابن الحمودة وزوجة يوسف بو حمود لم
تعرفا أية تفاصيل عن علاقة أحمد السعيد وأبي يوسف بضيعة النبع...

إلا أن زوجة يوسف صارت تكره ضيعة النبع وتكره اسمها جراء حب زوجها
(شياله)، وصارت من حيث لا تدري ولا تريد، تصغي لكل حكاية تتعلق بالجبيلي
وسببه وشياله، وبضيعتهم التي تركوها منذ وقت غير قريب، وقد فكرت يوماً بأن
تذهب إلى (سيهه) وتحدثها بحديث حب يوسف لقريبته، لكنها خافت من غضب
زوجها وعقوبته لها بما لا يرضيها... وبما يجعلها تسقط في وحل الندم ولا تنهض
منه.

بقيت زوجة ابن الحمودة وزوجة كريم تتناوبان على العمل في الأرض وعلى
متابعة الكلام عن حياة وأيام القرية والجيران...

أرض كريم وأرض ابن الحمودة متجاورتان، لا يفصلهما إلا الدرب الذي

يصل بين البيوت. أما أرض يوسف بو حمود فهي تجاور الساقية من الجهة الشمالية...

انحدرت زوجة يوسف عبر الأرض المجاورة، لأرض شجرة التوت، ولم تنتبه إلى حيث وقفت جارتها تتحدثان، ولو أنها انتبهت، لتمهلت عندهما، وحدثتهما حديث حب زوجها وعذابها أو حديث شجرة التوت وصاحبها.

هاجس صعب، ظل يقلقها ويفزع طمأنينتها، هو حب زوجها لسواها: تحاول أن تبعد بتفكيرها عن هذه الحكاية، التي خربت عليها هناعتها المحدودة، لكن محاولتها تبوء بالفشل، ويعود إلى رأسها هاجس مفزع، يحاصر أي أمل، أو حلم أو بارق سعادة يشرق في نفسها وحياتها: تكلم وهما، وهي تمشي أو تجلس أو تعمل: "ما هذه القصة التي ابتليت بها مع زوجي؟ كأن ضياع شجرة التوت، ارتد عليّ بالأذى والتعاسة".

بقي جذع شجرة التوت يفرع كل عام، وبقي الطائر الكبير، يقبل على الجذع الفارع، وأبو يوسف، بقي يزور لهوفاً إلى أيامه وحياته، التي عاشها في بيته، قريباً من الشجرة العتيقة، والحيران العتيقين...

بيت ولده في طرف من أطراف المدينة... في قرية ليست كقرية شجرة التوت، وحياتها ليست كحياتها، جفلت روح أبي يوسف أول أمره، وأحس بضيق في أنفاسه: بيت ولده غرفة ونصف غرفة وسرير حديدي، قوائمه تعيسة... صدئه... كعمره... تفصل الغرفة المسماة بيتاً... تفصلها عن البيوت الأخرى أرض غير مزروعة، وعن المدينة مسافة مأهولة بالقمامة وأحياناً بصوت الحيوانات وأصحابها المقبلين على (البازار) لبيعها أو لإبدالها.

ولد أبي يوسف لا يهدأ في الغرفة المسماة بيتاً، وإن هدأ فهو ينام، لأن عوزه للنوم والعيش الكريم أكثر من عوز ابن الأحمد للظرافة والروح الرياضية.

عمله يتبدل مع تبدل الفصول واختلاف المواسم... في الصيف يعمل في الأرض... يشترك مع أقرباء أبيه، الذين يعيشون في قرية النبع كل الفصول، إلا في فصل الصيف... فهم ينزلون إلى أرضهم القريبة من أرض ولد أبي يوسف...

وقد اقترب الولد من أقرباء أبيه، واشتغل معهم بلهفة، لأن ابنتهم الكبيرة والوحيدة، بادلتها القليل من الهمس واللمس، والوقوف تحت الشمس... ومرة أو

مرتين أو أكثر، حاولت أن تغمز له إشارة منها إلى حبهـا له... ففوجئت بأنه لا يعرف أن يغمز... بل يغمض عينيه إغماضاً تاماً، حتى يظن أنه مصاب بالرمـد، أو أن عينيه تعشيان، وعنايه في جميع الحالات ليستا مدعاة للسرور والبهجة، وملامح وجهه كعينيه، تخبيئ رصيـداً زائداً عن الحاجة، من التعاسة... ملامحه تشعر الناظر إليه، أنه خارج من موسم بكاء ضخم، أو أنه على موعد مع البكاء المرير... عبوسه كحالة السرور... العبوس والسرور لا يختلفان في أمر. حتى إذا ضحك، فتنظنه مصاباً بالزكام ويريد أن يعطس عطساً عنيفاً...

مـلامحه ماركة غير مسجلة في سجلات الملامح... لأن التعب لا يظهر عليها، وكذلك الانتسراح... وكيف يتم ذلك، ومـلامحه شبيهة بأرض مغطاة بالحجارة الصغيرة السوداء؟

وقربيته ليست خيراً منه، إلا حين تغمز بعينها، فعين من عينها أتاها الغمز، منذ ولادتها الميمونة، في دارة أهلها الموقرين، في قرية النبع، وقد وصفها (عبدو الشاعر) جار أهلها وقريبهم:

"إنها حين تنظر إليّ أحس أنها تريد أن تبصق في وجهي وفي وجوه جميع المواطنين، المقبلين على الحياة... فتجعلهم، متى رأوها، يحسون أن وقت إقبالهم على الحياة انتهى، وحين وقت إدبارهم، وعينها اليمنى عوراء أو شبيهة بالعوراء، فهي في حال من الغمز الدائم".

ولد أبي يوسف انشد إليها أول أمره مع أهلها، وواظب على العمل معهم في أرضهم، حتى إنّه أقنعهم ببناء غرفة كغرفته، يسمونها بيتاً...

أبو يوسف التقى بأقربائه البعيدين، الذين تربطه بهم آصرة قرى غير متينة، بسبب تعرج الدرب ووحشته، وبسبب الفقر المتكـدس في كل منحنى من منحنيات حياتهم، الفاخرة كعطر (أسعد الشحاذ).. عرفهم جيداً وعرف الأبياء الذين رحلوا عن هذه الدنيا تاركين إرثاً عجيباً من التعاسات المتنوعة، كتـنوع الأوساخ المتراكمة على جلد وثياب أسعد.

وقد انتبه إلى إقبال ولده على بنتهم المزدهرة كفضاحة وحياة صالح الجبيلي. برّر أبو يوسف لولده المجتهد في مجالات الحياة، أن يقع في هواها، لأنه، كوالده لم يجد من يقع في هواها، إلا ها أو من هي؟ أتعس منها.

تذكر أبو يوسف، وهو يعاين قريبته العوراء، التي هيئ لولده أن يقع في هواها.. تذكر كيف وقع في هوى السيدة الشفافة... أم يوسف، وعادت به الذاكرة

إلى الأيام البعيدة، فلعن حياته غير السعيدة، لأن دروبه صارت عن شجرتة بعيدة، وقال في نفسه:

"أم يوسف يوم طلبتها من أهلها، قبل والدها طلبي على الفور... وأهداها بضع دجاجات، وحدوة جديدة أحضرها لها من المدينة. واحتفلت أم يوسف بالحدوة الجديدة، أكثر من احتفالها بحبي لها... حدوة محترمة. بنظر أم يوسف. أكثر من أي شيء آخر... قد يكون والدها وفق إلى اختيارها مصادفة، أو أن صانع الأحذية، لم يصنع إلا هذا النوع... وقد أمعنت أم يوسف بوصف حدوتها وتعدد مزاياها النادرة:

"حدوة مصنوعة من جلد متين، وشكلها غير شكل، وتريح القدم إراحة تامة، وهي لا تصدر أية رائحة مهما لبسها الإنسان".

هذا ما ظلت تقوله أم يوسف عن حدوتها، في كل مرة تلتقي بها أبا يوسف، وقد قلت ملاقاتها بأبي يوسف بعد أن تمت الموافقة عليه زوجاً.

ظلت تحكي عن مزايا الحدوة، رغم أنها لم تلبسها إلا وقت جريتها ثم خبأتها في الصندوق الذي قدم لها من أحد أقربائها أو من أبيها...

أبو يوسف وأم يوسف اجتمعا بأقربائهما، في بيت ولدهما المصان صيانة كاملة من قبل الشقاء لا أكثر ولا أقل...

اجتمعت العائلتان، في بيت ولد أبي يوسف، الذي دعا أهل حبيبته، المكتشفة حديثاً وأقام على شرف قدومهم المبارك إلى بيته، لأول مرة، تصحبهم بنتهم الدلوعة، المحبوبة... الغالية على قلبه... واحر قلبه وكل قلب يصار به إليها أو إلى حبها... أقام على شرف قدومهم غداء فريداً من نوعه بنظر أم يوسف:

ذبح لهم دجاجة كبيرة، وطبخ لهم البطاطا، والقمحية، وأحضر اللبن.. وشرحت أم يوسف بإسهاب وإفاضة واقع حال الغداء: "ابننا (خبصها) اليوم يا أبا يوسف، شوى الدجاجة وطبخ البطاطا والقمحية وأحضر اللبن. واشترى لنفسه حذاء وثياباً جديدة... وصرف كل ما لديه من أجل هذه الحبيبة العجيبة.

سأل أبو يوسف:

. لماذا عجيبة؟

. لأن عيناها تنتظر نظرات غير صحيحة...

عرف أبو يوسف أن زوجته من الجهل وقلة الفراسة بمكان، جعلها، كولدها، لا تعرف أن عين البنت مصابة بالحول الفائض عن الحاجة، أي أن حولها ليس حول الحسن. أو أنها عوراء بشكل من الأشكال. عاد أبو يوسف ووضح لزوجته: البنت عينها بها حول يا أم يوسف، أو أنها عوراء.

نادت أم يوسف بصوتها الرعاد، وشدت على ملامحها الشبيهة بالغضب المكوم في حلق قرية عطشى ومعذبة بالبؤس... نادت:

. بها حول أو عوراء؟ ألا يكفيننا ما عندنا من هم وفقر، حتى نزوج ابنتنا واحدة

بها حول أو عوراء. !!!

أنتم أبو يوسف الشرح:

. وقد يكون صوتها مثل عينها يا أم يوسف...

أم يوسف جلست محزونة... وقد استبد بها النعاس، فسرقها الغفو، فنامت على الكرسي، وأطلقت العنان لصوت أنفاسها، غير المؤنس، وازداد صوت أنفاسها علواً واضطراباً، وصارت تتكلم وهي نائمة، كلمات غاضبة، فهم منها أبو يوسف، أن الدجاجات التي تركتها برعاية زوجة كريم، أصابها الأذى، من (ابن آوى).

ضحك أبو يوسف ضحكته الهائلة الودودة، التي لا تبين كثيراً، لكنها تبوح بعذوبة خاصة في نفسه، على عكس زوجته، التي لا تبتسم إلا نادراً، وإن ابتسمت فابتسامتها شر من عبوسها...

لعلها لم تتعلم من الدنيا الابتسام، وفي ظنها أن الابتسام أو السعادة الملحوظة عار على الإنسان...

كابوسها استمر، وصوتها صار أشع وأكثر غضباً، فلم يرد أبو يوسف أن تستمر في عذابها وقلقها... فأهاب بها أن تستيقظ... جفلت والخوف على كل ملمح من ملامحها: على جبينها العريض غير الوضاء بتاتاً، وعلى وجنتيها، اللتين ضاعتا بالتجاعيد القديم منها والحديث، لأنها ورثت، عن أهلها التجاعيد في الوجنتين، وعبوساً ونقطياً في الجبين.. وهذا الميراث عرفت به عائلة أهل أم يوسف. وولدها استفاد من ميراثها هذا الكثير، فوجهه شبيه وجه أمه، وحاجباه، يا ويح قلب العاشق الصب، كحاجبيها.

عابن أبو يوسف زوجته وهي تصحو من كابوسها، وقد مدت يديها كمن يريد أن يتكى على جدار الظلام، فأمسك بها من كتفها، خشية أن تمشي، وهي نائمة،

وتسقط أو تصطدم بالحائط أو المنضدة العجيبة، التي استضاف عليها ولدها عائلة حبيبته.

عادة المشي، وهي نائمة، عادة معروفة، ولعلها من العادات التي ورثتها أم يوسف عن أهلها... خاصة إذا كان الكابوس، يتعلق بالدجاجات أو بالحدوة، فإنها تحاول أن تركض، وتمسك بابن أوى أو بالهزة اللئيمة، التي تأكل البيضات، أو بأسعد الذي، رأته مرة في نومها، يريد سرقة حدوتها، فصرخت به صرختها (الارتوازية) المعهودة، وهمت تمشي وراءه، فسقطت من على العرزال، وتكسرت بعض عظامها، وجبرها يومها (صالح الجبيلي) وأعانه على ذلك أبو يوسف.

صحت أم يوسف أخيراً، وظنت أول صحوها، أنها أمسكت بابن أوى أو بأسعد، فوجدت نفسها أنها ما زالت على الكرسي العالي، وإلى جوارها زوجها، يعب من لفافته العريضة، ويرتشف من فنجان الشاي...

زمت شفيتها كعادتها، حين تريد الكلام:

. كيف تتركني أتعذب، وأنا نائمة، ولا توقظني؟

- لم أنتبه إلى أنك معذبة بالكابوس، إلى حين جاعني صوتك كرسول العذاب، يخبرني عن أمر فاجع.

. صرت تتفلسف آخر العمر يا أبا يوسف؟

وصرت تأتيك الرسل ويخبرونك بالأمر؟

زمت شفتي أم يوسف استمر، وكابوسها، ظل يعذبها.

قال لها أبو يوسف وقد لمح شفيتها وعبوسها وتقطيعها:

. أنت تشبهين ابن الأحمد شياً بعيداً.

. وأنت تشبه من؟

. أنا أشبه شجرة التوت.

لم تجب أم يوسف، لأن حياتها في البيت الترابي قرب الجذع الكبير لشجرة التوت، تحبها كثيراً، وتذيع في روحها القليل من الأمل، لأن روحاً كروحها، يسكنها العذاب، وتسكنها الكوابيس، ليس هيناً على أي بارق أمل أن يسطع فيها...

عاد أبو يوسف إلى الكلام، وقد شاقه أن يتحدث عن بيته والشجرة التي ألفها وأحب معها الحياة والناس:

. لا أدري كيف اندحرت حياتنا الطيبة يا أم يوسف؟
الشتاء الذي مر كان صاعقاً وغازباً
. مثل ابن الأحمد و...
. ألا تعرف أن تنساه؟
لم يجب على سؤالها، وراح يغني بصوت خفيض:
(ما بين طرفة عين وانتباهتها
يغير الله من حال إلى حال)
لم يدم غناء أبي يوسف، وحديث زوجته، لأن خطوات ولدهما اقتربت...
سألت الأم الولد:
. أنت اليوم زرتها، لماذا لم تسألني؟
. أخبريني هل أعجبتك؟
أبو يوسف ازداد إصغاؤه، ولم يتكلم، ليسمع كلام زوجته المحترمة، بسبب
علاقتها الطيبة، مع حدوتها، ودجاجاتها:
. هل يقصنا فقر، حتى توقعنا هذه الوقعة، وترمي نفسك هذه الرمية،
. هي بنت تربيتها جيدة، وعينها لا تنظر إلا إليّ.
. أنت كوالدك متى أحببت، لا تعرف أن تترك أو تفلت، تعلق مثل العصفور
(الغشيم) على أول (دبق).
ضحك أبو يوسف، وكأنه يقول بضحكته لأم يوسف:
. أنت الدبق... واللعنة على هكذا دبق...
لكنها لا تفهم كثيراً بالتمليح... حتى بالتصريح تفهم ببطء. قال الولد:
. هي قريبتنا، والدها ووالدتها، وأخوها موافقون على زواجي منها.
. أمها ترى نفسها فوق كل الناس، وهي أقل الناس.
. هي تحب والدي وتقول عنه: إنه ابن عم والدها، وإنه قديم في قرية شجرة
التوت، وتقول إن القرية سميت باسم شجرته.
. أنت وأبوك الكلمة تأخذكما إلى آخر الدنيا وتعيدكما.
أنجز أبو يوسف لفافة التبغ العريضة... وأشعلها وعبّ منها نفساً عميقاً، ثم
نفثه ثانية، وانتبه إلى زوجته وابنه، وهما يتحاوران بشأن القرية، التي اجتمع بها

الولد، وأحبها، وهي أحبته، ولعلهما لم يحب كل منهما الآخر، بل وجد كل منهما قبولاً عند الآخر، فاستجابا لهذا القبول، وسمياه حباً، لأنهما لم يعيشا، من قبل الحب، ولم يعرفا فن الاثتاق...

والحقيقة الأصعب، في هذا الحب الطارئ، أن الواحد منهما لن يجد أفضل من الآخر... يصح عليهما المتل (الطيور على أشكالها تقع) أو (جحا أتعس من أخيه).

لكن أم يوسف، كما وصفها، أبو يوسف سيئ طبعها، لا يمكنها أن تفرح، أو أن ترضى... ولعلها لم توفق يوماً إلى أن تذوق السعادة، ولعل حالة البؤس والتقطيب الملازمة لحاجبيها ووجهها، هي في أعماقها كصخرة، من صخور التلال الفاصلة بين قرية التوت وقرية النبع.

وزاد من حدة موقف أم يوسف تجاه حب ابنها، إضافة إلى الخلل الشامل، الذي يشمل حبيبته، إضافة إلى الخلل هذا، هناك خلل آخر، هو أن أمها ترى نفسها أهم من أم يوسف، وهذا ما ينغص عليها.

بقيت سمر رغم زواجها، وهربها، من زوجها، نضرة النفس، وبهية، وسلمان لم يقدر، على نسيانها، والسيطرة على هواجسه ومشاعره تجاهها... استبد بروحه حب سمر، فصارت ملء حياته، وشغل أحلامه وتفكيره...

رأها يوم تزوجت، رأها في حلمه، تركض في جهة من جهات القرية البعيدة، القريبة من الغابات، ورأى والدها يركض وراءها غاضباً... ورأى أختها رباباً تركض وتبكي...

حاول في اليوم التالي أن يذهب إلى بيت ابن الأحمدم، بحجة أنه يريد الجلوس إلى قزميد، لكن محاولته أفضلها خوفه من ابن الأحمدم، الذي رآه، من بعيد، وهو يقتلع الأشواك الكبيرة المحيطة بالشجرات.

همهمات ابن الأحمدم، وهو يعمل في أرضه المجاورة لأرض ابن الصالح وكريم تنبئ عن مكان وجوده، قبل مشاهدته.

هو لا يعرف كيف يتتهد أو يهتمهم أو يتنفس أو يتكلم إلا بصوت عالٍ، علواً

مزعجاً ومخيفاً أحياناً... أدرك الخوف سلمان، قبل أن يصل إلى الباب الخشبي الذي صنعه ابن الأحمد بعناية... الباب يتوسط السياج، المرفوع حول الأرض والأشجار... الباب والسياج يدعوان إلى الضحك، وكأن ابن الأحمد رفع السياج وصنع الباب، لا ليرد أحداً عن أشجاره، بل ليزين تخوم أرضه. السياج عيدان متداخلة، مربوطة بعضها ببعض... والباب كالسياج، لكن عيدان الباب أكثر متانة... وقفل الباب قفل غير عادي: عود متين، يسحب، فيصبح الباب حراً، يعاد فيصبح الباب مقيداً...

سلمان يعرف سياج الأرض والباب معرفة أكيدة، ويعرف كيف يفتح، وكيف يغلق، لكنه لم يجرؤ على فتحه، خوف أن يصرخ في وجهه ابن الأحمد... عاد سلمان، خائفاً، خائباً، يجتر حلمه الذي رأى فيه سمر تركض، ووالدها يركض وراءها، لم يرى سلمان وهو عائد إلا زوجة ابن الحمودة، فتمنى على نفسه، أن يقف عندها ويسألها عن سمر. وعابن شجرة التوت، فلمح أم يوسف، ولم يوفق بنظراته إلى أبي يوسف... ولو أنه رآه لأقبل عليه، وسأله عن سمر وواقع حالها وحياتها...

وفي المساء علم من حيث لا يريد أو لا يحب.. بزواجها. علم من أم يوسف، كما علمت القرية بأكملها.

مرت على الجيران جميعاً، تخبرهم: "سمر تزوجت، في قرية النبع، ولد (قحموص).. هذا ما قاله أسعد.. وقال إن حياة عائلة (قحموص) وولده حياة بائسة، وإن سمر كارهة هذا الزواج".

وصدقت نبوءة الأيام وشجرة التوت، وهربت سمر من زوجها، وعادت معها قصة الزواج والهرب ووالدها.. عادت تعذبها، وتؤلم روح أمها وتنغص عليها حياتها مع والدها. سلمان وحده، من بين الجيران الكثيرين، لم ينظر إلى سمر نظرة مؤذية.. بقيت حبيبة وحلماً لا يبرح رأسه وحياته.. بقي يراها وهو مشوق إليها، ويبحث عنها، تحدوه لهفة العاشق، البكر: تعثر في المدرسة، والدروس، وفشل في متابعة الرحلة مع الكتب، والنجاح، أما حبه لسمر فقد نجح نجاحاً أكيداً في امتلاك كل نفسه وآماله..

بعد أيام من خصومة ولدي أبي يوسف حول ما بقي من البيت الترابي والأرض المحيطة به، قصد سلمان بيت ابن الأحمد، بغية معاينة سمر.. روعه أنه لم ير شجرة التوت، والبيت.. وملاه الأسف بصوت يخلو من العذوية.. أحسه مزيجاً من صرخات ابن الأحمد المدوية، في وجه زوجته وأولاده، وصوت ابن أوى

(أبو زهرة). ظل يمشي إلى حيث الدرب المؤدي إلى بيت ابن الأحمد، وظل صوت الأسف يعذب باله، وظل من حيث يريد أو لا يريد، ينظر إلى بيت أبي يوسف والجذع المتبقي والأرض القريبة المسيجة بالقليل من العيدان. لمحته سمر من بعيد، لكنها غابت في جهة من جهات الكرم القريب من البيت، ولم ترد أن يلمحها، ويأتي إليها ليحدثها:

رغم أنها تشعر بالمودة والمحبة تجاهه، لكن زواجها غير الموفق، صار كالجدار بينها وبينه، وهي لا تحاول أن تتجاوزه خوف أن تسقط..

- (عبدو الشاعر) يزور أخته يا جبيلي.

- من أخبرك يا يوسف؟

- أخبرتني رباب بنت ابن الأحمد، أرسلها والدها، لتشتري البيض، فلم تجد عند زوجة كريم، فجاءت إلى الدكان.

- ابن الأحمد طبعه عجيب يا يوسف.

- كل حياته غرائب وعجائب يا جبيلي.

- هو لا يشبه والده (أحمد السعيد) إلا في حبه للطعام، أما الأمور الأخرى فهو مختلف فيها عن أبيه يا يوسف، تصور ما يفعله بأولاده:

شردهم واحداً بعد واحد.. ولده الكبير هجر البيت، وإلى اليوم لم يرجع..
جوهرة تزوجت من رجل كبير بالسن، حتى يمكنها أن تعيش بعيداً عن أبيها..
وسمر . كما سمعت . تزوجت ولد (قحموص) وهربت منه..

قاطعه يوسف:

- أما رباب فلن تتزوج إلا النحس، وطول الشقاء عند والدها، فهي ليست جميلة.

- رباب تشبه أم يوسف.

- وولده قرميد يعرج النهار بطوله وراء والده، وهو يقتلع الأشواك من الأرض.

- أذكر . يا يوسف . أحمد السعيد، كان أقوى من الأيام السوداء..

يعمل النهار بطوله، في أرضه، وفي الليل يسهر في بيته، يقرأ ويكتب، أو يذهب لزيارة قريبه والد (عبدو الشاعر) في (قرية النبع).

شياله أصغت إلى حديث الجبيلي ويوسف، وهما جالسان في الدكان، واسترعى انتباهها اسم (عبدو الشاعر) وقارنت بينه وبين يوسف، من حيث لا تريد، قالت في نفسها:

"يوسف يحبني، لكنه لا يعرف كتابة الأشعار، ولا يغني الأغاني، أما (عبدو الشاعر) فإنه يكتب لي الأشعار، .. أسعد (المهبول) يحفظ الأغنية التي غناها لي، وقت أحبني، قبل أن نترك قرية النبع".

يوسف لا يعرف أن عبدو الشاعر أحب شياله، قبل سفرها وسفره من القرية، ولو أنه علم بأمر هذا الحب، لكانت نظرته إلى (عبدو) تغيرت، وكان ارتياحه له استبدل بالغيرة والشعور بالكراهية.. لم يدم حديث الجبيلي ويوسف، وتوقف خيال شياله عن المشابهة والمقارنة لأن صوت أبي يوسف جاء حنوناً قوياً:

-أين أنت يا جبيلي؟

سمعت شياله النداء.. و(سبهه) التي كانت في (الحواكير)، تبحث عن بيضات الدجاجات التائهة، سمعت النداء.. ولولا أن رأته الجبيلي ويوسف هما بالترحيب بأبي يوسف، لكانت بادرت بالترحيب به من بعيد.

قالت (سبهه) لنفسها، وهي تعانين أبا يوسف يمشي متمهلاً وينظر إلى الجهات، كمن يبحث عن غيوم ماطرة، لتسقي كروماً عطشت، أو ينتظر أمراً، لعله يوفق إليه أو إلى أخبار عنه، قالت (سبهه):

"هذا هو صاحب الشجرة العتيقة، كما سمّاه أحمد السعيد، يمشي على مهل، ويرفع رأسه بين الحين والحين لينظر، أو ليؤدي التحية لأحد الجيران.. هو يمشي ورأسه مطرق، وكأنه خائف من حفر الدرب أو من الأفاعي، تجيء من التخوم الخافية عنه.. وكيف لا يخاف من الحفر والأفاعي، وقد ذاق مرّ الحياة كثيراً، حتى ذاق حلوها قليلاً؟ لكن ولديه المتزوجين أساء إلى حياته بقطع الشجرة، وإهمال البيت ومحاولة هدمه هدماً تاماً، وأساء إلى كل جار وكل بيت".

الجبيلي أبقى على نفسه أن يعانق صديقه العتيق إلا على المصطبة، قرب جذع الشجرة وظلالها، التي أمام بيته، ويوسف رحب بكل مشاعره، واستحضر كل لياقاته الترحيبية، القليلة والبائسة، ليشعر أبا يوسف، بأنه مسرور للقائه، وأنه كبقية الجيران، يحس بالأسف لتزكته قرية شجرة التوت.. لكنه رغم كل ترحيبه، لم يرغب

بجلوسه في الدكان، لأنه، بذلك يفوت عليه فرصة مشاهدة شياله.
على المصطبة بدأ الجبيلي الاحتفاء اللائق . بنظره . بأبي يوسف: صافحه
بكلتا يديه، فتذكر أبو يوسف، على الفور، أسعد، وطريقته بالمصافحة.
بعد المصافحة الشديدة، كمظهر أول من مظاهر الاحتفاء، بدأ الجبيلي رحلة
العناق مع صديقه العتيق. وعناقه (أشد وطأة على الوجه من وقع الحسام المهند)
هو كالعض أو كالضرب.. ويطول عناق الجبيلي فتطول معاناة المبتلي بعناقه،
وترحيبه.. أبو يوسف لم يستطع رد طوفان عضات أو قبلات الجبيلي، فاستسلم
مغلوباً على أمره حتى انتهت رحلة الاحتفاء الفاسية، والشانكة كأرض ابن الأحمد.
شياله راقها رؤية العناق العنيف، وراقها أكثر أن تقرأ ملامح أبي يوسف،
الذي سمعت عنه الكثير، ولم تره إلا سريعاً.

ملاحم أبي يوسف تسعد الناظر إليه، وتشيع فيه حالة من الطمأنينة.. وهي
بارعة في الخلاص من اليأس والتعاسة.. صوته حنون، يخلص السمع من ضجة
الصراخ الذي لا نفع منه، بل أذاه كبير. هذا ما قالت شياله لنفسها وهي تعانين أبا
يوسف، وهو يجلس على الكرسي الصغير، ويسند ظهره إلى الجذع.. يوسف لحق
بهما، وقد بان على شعره الماء، فعرفت شياله أن يوسف، لا يدع للفوضى أن
تؤذي هندامه وأناقته، أمامها.. فهو حين يعرف أنه قد يراها، يخلق ذقنه حلاقة
متأنية، ويسرح شعره باهتمام، ويرش القليل من العطر على وجهه وثيابه.. لا
يفصل الدكان عن بيت الجبيلي إلا حفاف الدرب. خطوات قليلة يمشيها يوسف
فيصل إلى بيت الحبيبة. الجبيلي أقبل على الباب المفتوح، فبان له (شياله)
تسرح شعرها وتهتم بلامحها، فنادها بالإشارة، لأنه لو تكلم هامساً، لأيقظ
النائمين، في الحارة (الفوقانية) وهو يعرف قوة صوته، وجهله المطبق بالهمس،
ولهذا اكتفى بالإشارة، وشياله الأنيقة القارئة الكاتبة، تفهم بالإشارة، كما يصفها
قريبها الجبيلي، الذي يعتبر كل من كتب على صفحة بيضاء، كاتباً، وكل من قرأ
سطراً في كتاب، قارئاً.. من هذا الباب وصف شياله بالقارئة والكاتبة، لأنها تعرف
القراءة وتستطيع الكتابة.. علمها جمالها الأناقة، وعلمتها الأيام وعبود الشاعر
وأغانيه أن تقرأ وتكتب.

فهمت شياله إشارة الجبيلي، وبادرت على الفور إلى إحضار الإبريق الكبير،
المعلق في الخشبة المركوزة في الجدار.. وقد تاهت عيناها أول الأمر، ولم توفق
إلى هذا الإبريق، الذي يصفه الجبيلي:

"إبريق يليق بالمقام، وغطاؤه مربوط بسلسلة خاصة بربط الأغطية بالأبريق، ولا يجوز أن تقدمه للبعيد والقريب، هذا إبريق الكبار، لأن الكبير للكبير.."

تذكرت شياله وصفه للإبريق، وهي تبحث عنه في الأغراض المعلقة بالخشبة، المخصصة للأغراض والغبار وكل شيء نافع وغير نافع.

خشيت شياله أن تسقط الخشبة، وما عليها من أغراض وأن تتسخ عباؤها بالكثير من الغبار وسواه، من الأوساخ المتركمة.

أخيراً اهتدت إلى الإبريق، سحبته بهدوء، فلحقه غطاؤه المعلق به، محدثاً صوتاً خفيفاً، جراً اصطدامه، بالأغطية الأخرى، غير المربوطة.

الجرة، لتي في الداخل، ذات شأن وأهمية، كالإبريق، إذ لها غطاء فخاري، ولها وعاء فخاري أيضاً، يستخدم كوسيلة اتصال وحيدة بين خارج وداخل الجرة.. حسب تعليمات الجبيلي التفصيلية، بخصوص الجرة، وميزاتها، وأسلوب التعامل معها.

لم تتجاوز شياله التعليمات. حملت الإناء المربوط بـ (يد) الجرة، وملأته، وغسلت به الإبريق لأنها لو غلت الشاي بالإبريق، قبل غسله، لكانت الشاي غبارية، وهذا ما لا تتمناه لواحد كأبي يوسف.. بعد أن ملأت الإبريق ماء سلسبيلاً.. بدأت رحلة البحث عن السكر والشاي.. قدرت شياله أن (سببه) تضع السكر والشاي في كيسين خاصين، فراحت تبحث عن السكر والشاي على الرف الخشبي ميسور الحال، الذي حمل من الأكياس، ما ثقل وزنه وقلت فائدته..

اجتهدت شياله ما أمكنها الاجتهاد، في البحث. نقلت الكثير من الأكياس وبدلت في أمكنتها، دون جدوى، حتى أعيهاها البحث، فراودتها فكرة أن تطلب من يوسف إحضار الشاي والسكر من الدكان.. لم تحقق فكرتها، لأن صوت (سببه) بلغ سمعها، وهي تسأل أبا يوسف عن حياته وزوجته وأولاده، وقد انتقلت سريعاً من أسئلتها المتلاحقة عن أحواله وحياته إلى الحديث عن الدجاجات و(توهانها):

-تتوه عن أماكنها، فتبيض بين العشب، وعند التخوم وفي الحواكير فيسرقها أولاد الحرام.

قال لها أبو يوسف، وقد حضرته صورة زوجته، وهي تبحث عن الدجاجات وبيضاتها، ونشتم السارقين قال:

-لو كانت أم يوسف موجودة، كانت علمتك كيف ترجعين الدجاجة التائهة إلى مكانها..

ختم صوت ابن الأحمد الراعد الحديث الدائر بين سبيه وأبي يوسف، ولعله
ختم أحاديث كثيرة:

- أين أنت يا زهوة؟

انتبه أبو يوسف إلى جهة أرض ابن الأحمد القريبة من أرض ابن الصالح،
فلمحه وهو مكب على الأرض، يقتلع عشبها، وينادي نداه الراعد المعهود، في
قرية شجرة التوت وكل حاراتها، أعاد السؤال بالقوة نفسها:

- أين أنت يا زهوة؟

ردت زهوة:

- أنا هنا.. الآن انتهيت من الخبز، وسأرسل لك الغداء على الفور، مع
رباب.. بلغ الجواب سمع ابن الأحمد، فتوقف عن النداء.. أما ولده قرميد، فبان
قامته المربوعة قليلاً، وهو يعرج صاعداً إلى حيث والده..

أبو يوسف يروق له أن يظلّ يرقب الكروم والتخوم الخضراء، المترامية..
فهي حكايات عمره وروحه.. نامت صرخات ابن الأحمد واستقرت أمنياته، بعد أن
أخبرته زوجته، بأنها خبزت، وهيات له الغداء، وسترسله مع رباب.. شغلت أنفاسه
رائحة الطعام المتخيل، قبل أن تهمل بحمله بنته.. وخوف واحد بقي يشاغب على
رائحة الطعام التي تستحضرها أنفاس ابن الأحمد، متى اقترب موعد الغداء، أو
موعد أية وجبة أخرى لها علاقة بالغداء أو بالصباح أو بالعشاء.. لا شيء
يسيطر على خيالات ورأس ابن الأحمد كالطعام.. خوف واحد بقي يشاغب على
نكهة الطعام القادم، هو خوفه من غياب رباب، وجهلها الكامل بالحياة والآخرة..
فهي قد تسقط في وضح النهار، في حفرة بسيطة من حفر الدرب.. قد تتعثر
قدمها بقدمها، فتهوي، ويهوي معها الطعام، وقد تطعم أسعد إذا صادفته أو أي
رجل كأسعد.. والمصيبة الأكبر في هكذا رحلة تقوم بها رباب، من البيت إلى
الكرم حيث والدها، أنها.. أحياناً.. تتأثر لنفسها من الطعام، خاصة إذا كانت
(البطاطا المسلوقة)،

هي الوجبة، فتقبل على الصحن.. فتأكل كل البطاطا، ولا تتذكر أن والدها
يعاقبها على ذلك عقوبة شديدة، إلا بعد أن تكمل تأرها..

حمل قرميد الجرة الفخارية الصغيرة، وقدمها لوالده بخشوع، وخشية، من أن
تتاله لظمة طائشة من كف أبيه..

تناول ابن الأحمد الجرة، وقبل أن يضعها على فمه الواسع المحترم، سأل

ولده:

- هل تكون ملأت الجرة من الساقية، بدل أن تملأها من النبع؟
أجاب الولد، دون أن يعرج شرقاً أو غرباً أو جنوباً أو شمالاً:
- ملأتها من النبع، وكانت زوجة ابن الصالح هناك، ورأيتي.

انشغل ابن الأحمد عن الحديث مع ولده، بشرب الماء من الجرة، وقد أحس بعذوبة الماء، فراقه أن يشرب أكثر وأكثر.. بعد أن ودع فمه فم الجرة، نظر بعينيه، نظرات محددة إلى جهة البيت، فلمح رباب تخرج من باب السياج، فازداد خوفه وازدادت شهيته.

أبو يوسف لم يبعده صوت (الجبيلي) عن الكروم وأيامها، وعن قرية شجرة التوت وحياتها وأهلها: بيته المجاور لبيت عمه إسماعيل، وبيت والد كريم وبيت حمودة الصغير.. بعدها بيوت عائلة أحمد السعيد.

تنتشر البيوت متقاربة، لا تفصل بينها إلا الدروب الضيقة، والأحفة، والتخوم.

(الحواكير) ليست بعيدة عن البيوت، تحدها تخوم معلومة، أو أشجار قديمة، أو حجارة مرتفعة بشكل متناسق تناسقاً غير دائم.. وأحياناً تتحدد الحواكير والكروم الصغيرة بأسيجة من عيدان، كما فعل ابن الأحمد.

الحكايات تبدأ في جميع البيوت، أو تبدأ في بيت من البيوت، ثم تخلق في أفق البيوت والحارات، كما تخلق الحمايم من الشرفات والأعشاش، التي تجاور العتبات، فتصير كرسولات البيوت، تحمل الكلام والأحاديث الساخنة سخونة شاي (سبهه وأم يوسف) وتسعى بها إلى كل الجهات.

أخذ خياله إلى أيام الحارات القديمة، ولم يرجعه من شروده إلا صوت الفناجين، التي حملتها (سبهه) مع الإبريق.. وقد أكد صوت الفناجين صوت (سبهه) الداعي إلى شرب الشاي، والمرحب بقدم أبي يوسف:

-قدمك مبارك علينا..

-ضحك أبو يوسف، وقال:

-وقدم يوسف بو حمود ليس مباركاً؟

-هو جارنا القريب، لا يغيب عنا إلا وقت يقصد المدينة، لإحضار اللوازم والأغراض، المطلوبة للدكان.. (شياهه) خرجت خلف (سبهه) ومدت يدها برفق،

فسلمت على أبي يوسف.. فأشعرته بمودتها.. فكأنها، بتحيتها أذهبت عنه أذى تحية (الجبيلي).. وقد عبر عن ارتياحه:

-تحية (شياله) كالطل، أما تحية الجبيلي فهي كالغضب، لا يعرف واحد مثلي أن يهرب منه.. فرحت شياله للإطراء الناعم، كنومة أناملها، الذي أطراه على تحيتها أبو يوسف، أما الجبيلي، فاغتاظ غيظاً، أزجه، ثم هجم على الغيظ بابتسامه، هي أشبه ما تكون بالبكاء أو بالاستعداد للسعال العنيف والعالي، علو رقبة حذائه، البائس.. والمقبل على الخراب، إقبالاً شجاعاً.

يوسف بو حمود، امتزج شعوره بالسعادة لسماعه الاطرء، على حبيبة روحه (شياله) امتزج بالغيرة عليها، فأحس بمطر خفيف، يداعب عطشه، وظماً أنفاسه، ثم ينحبس المطر.. وأحس بجرح مؤلم يعذب صدره، ولا يستطيع الخلاص أو الهرب منه، فيستعذب الألم مرغماً وراغباً، في الوقت ذاته، وفي الشعور نفسه، وفي الالتفاتة اللهوفة، التي يلتفتها بكامل مشاعره وإحساسه، إلى جهتها..

عباءة (شياله) زادت أناقة، واسترسال شعرها على كتفيها، وظهرها، عنوان واضح لبهاء الأنثى وملاحظتها.. وعيناها الناعستان حسناً، أيقظنا في الحاضرين نظرات، كانت غافية في الأعماق والذاكرة.. أبو يوسف لم ينظر . عبر حياته . نظرات عاشقة، أو مفتتنة، ووجد نفسه ينظر بإسهاب إلى شياله، المليحة التي أعطتها الأيام أناقة وملاحة، ولم ينقص زواجها غير الموفق من حسناتها.. الكروم تسرق نظراته حيناً، فيعاين ابن الأحمد في أرضه العالية، وولده الأعرج، وهو يسعى عرجاً وراء والده.. وبيته المتبقي، رغم أنه لا يبين، ظل ينظر إلى جهته لهوفاً.. فيطالعه بيت يوسف وأرضه، وبيت كريم وطرف من بيوت الحارة العتيقة المتبقية.. أما بيته فلا يبين، تخفيه الأشجار الكبيرة المجاورة لأرض كريم وابن الحمودة..

لا يرجع أبو يوسف بنظراته إلا ليعاين حسن (شياله) وحكايات العمر الشقي على وجه (الجبيلي) العاطل عن الزواج دائماً، لأسباب لا تجهلها حارات قرية شجرة التوت، وقرية النبع.

طعنات العمر بيّنة آثارها على وجهه.

عاد صوت الجبيلي:

-هل تذكر يا أبا يوسف أيام قراءتنا عند خطيب الحارات (أحمد السعيد) كان يجمعنا تحت شجرة المروج.. ويعلمنا الفصاحة؟

-أنت يا جبيلي لا تنسى أمراً من الأمور .
-وكانت شجرة التوتة الكبيرة، في مكانها، لكنك لم تكن - بعد - تزوجت
الأميرة أم يوسف.. ألا يتكلم صالح بالصرحة والفضاحة؟
ضحك الجميع إلا الجبيلي، فبقيت همّة الابتسام خائرة لديه.. ومرت زوبعة
الضحك، دون أن يضحك.. عقب أبو يوسف:
-أنت لم توفق إلى أميرة مثل أم يوسف، في هذه الدنيا، لعلك في الآخرة
توفق إلى أميرة الأميرات، ولعلك تذكر جارك وصديقك أبا يوسف وأميرته السمراء.
الجبيلي استبشر خيراً، بأنه قد يوفق إلى أميرة ذات طول وقد.. لكنه تذكر أم
يوسف وطبعها الصعب، وملاحها الداكنة كزاوية داخلية، في بيت بعيدة عتبتة
عن صدره وزواياه، فخاطب نفسه:
"إذا كنت سأوفق إلى امرأة كأى يوسف، الأفضل لي أن أبقى عاطلاً عن
الزواج وألاً أوفق".

يوسف بو حمود، ترك كرسيه لأن بعض الجيران، قصدوا الدكان يريدون
الشراء، أو إصلاح بعض الأواني أو يريدون الحلاقة.. ولم يعتذر أملاً منه
بالرجوع ثانية إلى المصطبة..

أبو يوسف راقه حديث الجبيلي عن أيام القراءة، فتمنى أن يرجع إليها:
-هل نسيت يا جبيلي، القصائد، التي علمنا إياها أحمد السعيد؟
-أذكر: "جاني البرغوط جنبيبي

مزق لي كل تبيبي

جاني هوي وخياتو

وولاد عمو وخالتو..

قصيتين لصوفاتو

وكم فرشي شديت"

-البراغيط كانت لعنة علينا، هي والقمل، وقد قلت اليوم

-مد الجبيلي يده إلى رأسه، وراح ينفش شعره، ويحك جلدة رأسه..

قال له أبو يوسف:

-مالك تحك رأسك، كأن (البراغيط) لا تنساك من نعمها؟

-تذكرت أيام (البراغيط) السوداء؟

-أحمد السعيد كان فهيماً في دنياه وحياته وعلماً شعراً، يصف واقع حالنا يا جبيلي..

-علمنا كل الأمور النافعة.. وعلماً علم الطيور.. كان يقرأ عن الطيور في كتاب كبير، يتحدث عن الصيد وطباع الطير.. وحكمة العيش معها والاعتناء بها وتربيتها..

-هذا الكتاب احتفظ به ابن أحمد، لكنه لم يتعلم منه معايشة الطيور، أو تربيتها، أو الاستفادة منها، بل تعلم منه . فقط . كيف ينشر عيدان الدبق، ويصطاد العصافير، ثم يذبحها، ويطبخها ويأكلها وحيداً..

-ابن أحمد، ليته استفاد من علم أبيه، ومن حياته الطيبة.

شجرات دلب الساقية، العالية تبين للناظر من بعيد، وقد رآها أبو يوسف من على المصطبة، ومثله الجبيلي، الذي رافق أحمد السعيد سنوات عديدة.. رافقه في العمل عنده في أرضه المجاورة للساقية، ورافقه في بحثه عن الطيور، وتعلم منه القراءة والكتابة، وتعلم منه حب شجرات الدلب الكبيرة، التي يعيش فيها طائر الساقية الكبير، وتعلم منه الفصاحة العرجاء كعرج قرميد ولد ابن أحمد.. الجبيلي يفهم ببطء شديد، كمشية أم يوسف.. ولهذا بقيت فصاحته عرجاء.. من حيث لا يدري، وجد أبو يوسف نفسه يردد مطلع قصيدة كان يعلمهم قراءتها أحمد السعيد:

"الحمد لله ما أبدى الصباح سفور

حمداً مزيداً على عدد الحصى والرمل"

نسيم حنون، لامس روح أبي يوسف، والجبيلي.. وشياله وسببه اللتين بقيتا طوال الجلسة، تتحدثان عن أم يوسف، وعن قرية شجرة التوت، ثم انتقلتا للحديث عن (عبدو الشاعر). إنه نسيم التذكر والأيام، يبوح بأسرار، يختزنها البال، فلا يقدر على إخراجها إلى دائرة الإحساس، إلا هكذا نسيم وهكذا جلسات لها علاقة وثيقة بالأعماق.. صوت أسعد المشاغب . دائماً . والمتعثر.. جاء كصرخة ريح، صفرت فجأة، دون سابق إنذار.

"رسول الحب، شايف، ما يجيني

شواطئ الحب شايف، ما يجيني

رسول الحب سافر بالعباب"

صوته سبقه إلى الحارة العتيقة، عاين أبو يوسف درب البيوت العالية، فظهر له أسعد، وهو يعبر الدرب باتجاه بيت كريم. سمعت شياله غناء أسعد، فعرفت أنه يغني من أغاني (عبدو الشاعر). أسعد لم يكن يعرف أن قريبه (الشاعر) يزور أخته، ولو عرف ذلك، لكان أكثر من الغناء، وكان قرأ من أشعاره، التي يحفظها حفظاً لا سلامة فيه.. حفظ أسعد للشعر، يشبه كيسه وثيابه ورائحته، التي لا تحمد معاشرتها، من قبل أي أنف، مهما اشتد بأسه، وعلا شأنه.

كيس أسعد استوقف انتباه أبي يوسف.. واستوقفه أكثر غناؤه الأعرج كفصاحة جاره القديم (الجبيلي).

شياله، من حيث لا تدري، وجدت نفسها تبحث من جديد عن حب كاد يمحي من دفاتر عمرها المهترئة منذ البدء، وكيف لا تكون الدفاتر، مهترئة، والحياة ذاتها عابسة شاحبة الملامح موحشة؟

شياله التي أحبها (عبدو الشاعر) وأحبته حتى صارا حكاية قرية النبع، وقرية شجرة التوت وحاراتها، لكن الدفاتر المهترئة، لا تستطيع إكمال الحكايات الجميلة. تتمزق أوراقها بقدرة الشقاء، والعذابات الملحة، حتى لا تدع لعاشق مجال هوى، ولا تدع لشاعر مجال غناء حنون..

تمنت زوجة يوسف أن تترك السطح، وتذهب إلى بيت كريم.. تفلش أسرارها وهمومها أمام زوجة كريم، وتستمع إلى الحكايات وغناء (عبدو الشاعر)، الذي عاد صوته إلى الغناء:

"بين اليوم وبين الأمس

بيصير واحدنا للرّمس

يا خوفي عالشمسي

فوقاً شمس

وتحتنا شمس"

أيقظت هذه الكلمات روح الليل الناعس، وأحيت في نفس أبي يوسف تباشير مودة ومحبة.. وقد راق لسمع الزوجة المعذبة بالوحشة والغيرة، أن تسمع هذا

الكلام الحنون، وراقها أن تسمع صوت أبي يوسف، ينطلق من الشباك القريب، فيزرع وحشتها بالطمأنينة..

قال أبو يوسف لـ (عبدو الشاعر):

سمعت هذه الأغنية كثيراً.. سمعت أسعد قريبيك يغنيها.. وسمعتة يقول: هذه الأغنية غناها ولد عمنا (عبدو) لحبيبتة (شياله).

قال عبدو:

-أسعد يحفظ كل ما أقول وأكتب، لكنه لا يعرف كيف يحفظ.. استاءت لسماعها اسم (شياله)، لكنها من جهة أخرى، استقر بالها، حين سمعت أن (عبدو) يحبها.. قدرت في نفسها أن من يحبها (عبدو الشاعر) وهو الأنيق العارف بأسرار الدنيا، المجرب في الأمور.. لا تستبدله بصاحب الدكان، الذي لا يعرف أن يكتب الأشعار ولا يعرف الأسرار.. ثم إن حاله ليست كحال (عبدو الشاعر).. بيته في قرية النبع قديم وكبير، وحياته ميسورة، أما صاحب الدكان فحاله ليست مستقرة استقراراً واسعاً.. كل حياته في دكانه، يشتري ويبيع، وبالصعوبة يكاد يعيش ويطعم زوجته وعائلته..

ضوء بيت كريم كان أقوى أضواء بيوت الحارة العتيقة.. هذا ما رأته زوجة يوسف بو حمود.. وقد آذاها وعذب نفسها أنها حاولت أن ترى ضوء بيت أبي يوسف، فوجدت الظلام، يسد على عينيها المدى.. فلم تر البيت وشجرة التوت والضوء..

ضوء بيت ابن الأحمد، يبدو ضعيفاً، وأصوات أولاده، على غير عاداتها، مرتفعة.. فقالت زوجة يوسف:

ابن الأحمد إما أنه قصد بيت كريم هو وزوجته، للسهر ومجالسة (عبدو الشاعر) وأبي يوسف وقد عبّر ابن الأحمد مراراً عن أسفه، لغيابه عن القرية.. وعن حبه لسماع الغناء والأشعار، ومعرفة المخبأ من أمور الدنيا والأسرار.

في رحلاته القريبة، إلى الجيران، يصحب ابن الأحمد زوجته (زهوة) ويمتنع عن الصراخ في وجهها، وقد يبادلها القليل من المودات، التي قد يعثر عليها، وقد لا يعثر.

سمعت الزوجة المعذبة بعشق زوجها لسواها، صوت سمر، وهي تكلم أختها:

-أنت لا يهملك إلا أكل البطاطا وشرب الشاي.. وحين يعود والدك، كيف سنخفي أمر السكر والبطاطا عليه؟!

لم ترد رباب.. واستمر سعيها المشكور، أو غير المشكور، لا أحد يعرف عن أمر سعيها شيئاً.. استمر سعيها وبحثها عن أية بقية من البطاطا المقلية بزيت الزيتون.

رباب تأكل، وسمر يزداد قلقها وخوفها من والدها، الذي قد يثور على الجميع، وينالهم بالضرب المبرح..

قرميد كان في الفسحة الجنوبية المسيجة بالعيدان، وجذوع الأشجار والأغصان، المقبلة على الفسحة والجدار.. سمعت سمر صوت أخيها، فخرجت، تاركة أختها تتأثر من البطاطا، بالأكل العجول النهم، الذي يعبر عن موقف رباب المتشدد والسيئ تجاه الطعام وخاصة البطاطا، وهو موقف لا يأتي عبر الرفض، بل عبر الإقبال والنهم العجيب..

عرفت سمر أن سلمان ولد يوسف بو حمود وحسان ولد كريم جاء.. فشعرت بالهناة والسرور.. وشعرت أن خوفها من أبيها، جراء أكل أختها وشربها الشاي، بعنف وكثافة، قد ابتعد.. رمقت سلمان بحب ولهفة، لكنها عاجلت نظراتها، فأخفت الحب ما أمكنها الإخفاء، وعادت إلى حال من الهدوء والتوازن..

رحبت مثل أخيها بسلمان وحسان، لكنها لم تعرج مثله، وهما يدعوانهما للجلوس على الكراسي التي على المصطبة.. سلمان فضل الجلوس في الفسحة:
-الجلوس هنا قرب أشجار بستان أهل حسان وابن الصالح أفضل من الجلوس على المصطبة.

ردت سمر وتوجهت بكلماتها إلى سلمان:

-في النهار، نجلس في الفسحة.. فنرى كل بيوت وكروم (حارة الساقية) أما الآن فالظلام يغطي الأشجار وغيرها.

-حين تكونين يذهب الظلام.. أنت يا سمر كضوء بيت أبي يوسف، يخاف منك الظلام.. قرميد لم يفهم كلام سلمان، وبقي منشغلاً بالعرج والبحث عن الكراسي، وحسان ابتعد خطوات يسيرة عنهما، ليفسح لهما المجال.. فهما في حومة الحب، كل منهما يحب الآخر، ويبحث عنه، ويشتاق إليه، لكن جداراً غليظاً ارتفع بينهما، فأفزع فيهما الحب، لكنه لم يقدر على إهدار دمه.. فبقي كشجرة التوت القديمة، يفرع، وتخضر أغصانه..

كراسي ابن الأحمد مثل كيسه وصندوقه، خضعت لعمليات تبديل وترميم، كثيرة.. أساسها القش، لكنه لم يترك القش على حاله، فأضاف إليه، ما تيسر له

من خرق ومزق، بالية على هواها وهواه وهوى زوجته.. بعضها يجمعه من الأرض، وبعضها، يلمه من البيت.. ثم يجمع هذه الخرق في قماشة سمراء أو حمراء أو متسخة أو غير ذلك.. ثم يشبك القماشة مع الخرق، شبكاً جيداً، ويضعها على قش الكرسي.. وحين تصادف عجيزة من كتب عليه أو عليها الجلوس على الكرسي، تصادف العجيزة أولاً، خرق ابن الأحمد، والشريط الناعم الذي شبكها به.. وإذا كانت العجيزة ضخمة ضخامة معتبرة ومسجلة في سجل العجائز الفاخرة والضخمة، لا بد أن تلامسها مسامير ابن الأحمد، التي يستعين بها على تمئين علاقة الخرق بالكراسي.

حال الكراسي معروف لدى حسان وسلمان، ورغم أن الثاني سافر إلى المدينة وبدأ دراسته في الجامعة، فلم ينسَ واقع حال الكرسي.. وبقي حذراً حذراً شديداً، من أن يرخي كامل ثقله، خشية أن تصافح رؤوس المسامير عجيزته، فينط كالمدوخ.. وسلمان الذي وقف مع سمر، وبادلها الكلام الحنون، لأول مرة، منذ هربت من زواجها غير الموفق.. ولعله لم يبادلها هكذا كلاماً، قبل زواجها أيضاً.. وهي أيضاً لم تجرؤ، قبل هذا اللقاء المشفوع برائحة الحب وصوت أبي يوسف وعبدو الشاعر، لم تجرؤ قبل هذا اللقاء، على البوح لسلمان:

-لولا خوفي من عيون الحيران وألسنتهم، كنت سأزورك..

-تعالى أنت ورباب أو أنت وقرميد أو أنت وأمك..

-إذا ذهبت رباب، لا بد من أن تحضّر لها أمك البطاطا والشاي..

تيسّم سلمان، فيانت أسنانه البيضاء. وأضفت الابتسامة على ملامحه، إشراقاً وألقاً أذاع في سمر شوقاً لا تخفى علاماته.

زوجة كريم اعتنت، ما أمكنها بدجاجات أم يوسف.. لكن اعتناها، لم يصد هجمات (ابن أوى) صداً محكماً:

في الليلة التي سهر فيها أبو يوسف ونام في بيت كريم. هجم (ابن أوى) هجمة لثيمة على دجاجات أم يوسف ودجاجات كريم، لكن صوت (عبدو الشاعر) قد يكون أخافه، فهرب، دون أن ينال من الدجاجات، أو أن هجمته جاءت في وقت خروج ابن الأحمد من بيت كريم، ولا شك أنه سعل سعاله العالي، أو أنه أطلق واحدة من تهدياته الصاخبة صخباً، جديراً بإشاعة الرعب، في روح (ابن

أوى). وقد رأت زوجة كريم في نومها المنقطع حلماً: رأت جذع شجرة التوت يفرع فروعاً وأغصاناً لم ترَ مثلها من قبل، ورأت ما يشبه الطائر الكبير، الذي سمعت أبا يوسف يتكلم عنه..

ورأت (ابن الحسن) يحاول كسر الأغصان وحرق الجذع، وقتل الطائر، ورأت لأول مرة في حلمها وفي يقظتها، ابن الأحمـد يحمل عصاه الضخمة، ويهجم بها، على (ابن الحسن) فيهرب من وجهه.. ويبقى الجذع والفروع والأغصان.. ودعت السهو، من غير رغبة في الصحو.. فراعها أنها لم تجد ابن الأحمـد بين الساهرين.

- هل سمعت مثلي؟

- عن ماذا؟

- عن زواج ابن الحسن.

قالت زهوة لزوجة ابن الصالح:

ابن الحسن، لم يستفد من معاشره شجرة التوت، ولم يتعلم من الأيام إلا الإساءة للجيران..

ردت زوجة ابن الصالح:

وهو يسيء لنفسه أيضاً، فما هو تزوج امرأة غريبة ومسنة.. ولا أحد يعرفها أو يعرف عنها شيئاً..

دار هذا الحديث بين زهوة وزوجة ابن الصالح، وهما قريبتان من أرض وبيت ابن الحسن.. وقد شاهدت المرأة الجديدة، وهي تمشي وئيدة الخطوات، باتجاه التخم الفاصل بين أرض ابن الحسن وابن الصالح..

وكأن جرحاً كان مندماً، عاد إلى النزف والألم.. استيقظ في روح زهوة، وهي تعابن (الغريبة) تسرح في الأرض التي تعبت فيها، وزرعت، لكنها لم تذوق طعم ثمارها..

زهوة بقيت واقفة، وعلى كتفها الجرة الفخارية، المملوءة ماء.. وقد أخبرتها زوجة ابن الصالح بأنها قد تتعب من حمل الجرة، ويجب عليها إنزالها:

-انزليها.. وتعالى نجلس.. منذ وقت بعيد لم نلتقي.

-كانت الشجرة.. تلمنا يا بنت الكرام.

قالت زهوة كلماتها وغصة مرّة تعذب حلقها ونفسها: تذكرت أرض زوجها التي أخذها ابن الحسن.. وتذكرت شجرة التوت وأيام القرية معها.. تذكرت صوت الحب الذي كان يريح بالها، كلما اقتربت من تخم أرض شجرة التوت..

أمسكت زوجة ابن الصالح الجرة من على كتف زهوة، وأنزلتها.. لعلمها الأكيد أن الوقفة ستطول، وأن الحديث لن يختم بسرعة.. ولرغبتها الملحة في الأخذ والرد مع زهوة.. التي تختلف كلياً عن زوجها (ابن الأحمد).

قارنت زوجة ابن الصالح غير مرة بين زهوة و(ابن الأحمد).. والآن قارنت أكثر، إذ دققت النظر إليها.. إلى وجهها الطافح حياة، وعينيها اللتين تبوحان بحزن عميق لا ينتهي.. واستحضرت صورة ابن الأحمد: الملامح الغاضبة، والوجه المشحون بالغضب كمن يبحث عن عدو آذاه. وأنف ابن الأحمد الكبير المفلطح كمنقار طائر عجيب.

قالت زوجة ابن الصالح لنفسها:

"كيف تسمح زهوة لابن الأحمد أن يقبلها، وأنفه كالمنقار، ووجهه كعصفاة ريح شتوية هوجاء؟" وتمنّت لو تسألها هذا السؤال.

ضاعت زهوة في زحام الأسف والشعور بالتعاسة، ونسيت المهمة الموكلة إليها دائماً، وهي إعداد الطعام، الذي يليق بالمقام على حد تعبير زوجها.

ملامح زوجة ابن الحسن، تختزن فظاعات وآثاماً، فلا يبين وجهها: أهو وجه امرأة أو وجه ثعلب أو صورة حافة أصابها الانهدام فصار انهدامها كالفتح، يسقط فيها الغافل.. زهوة المكبلة بالتعاسات وسوء الطالع، كما قال لها (أحمد السعيد) بعد زواجها من ولده المصون صيانة تامة!! راعتها الوحشة القاطنة في ملامح الزوجة (الغريبة) ولم تقدر على الاستمرار في النظر إليها، خشية أن يزداد خوفها وتزداد آلام نفسها المبرحة.

شعرت زوجة ابن الصالح بحال جاريتها، وكيف لا تشعر، وقد أدتها ملامح (الغريبة) الموحشة كما أدت جاريتها.. إلا أن رصيد زهوة من الشقاء والمتاعب والكآبة يفوق رصيد زوجة ابن الصالح. منذ تزوجت زهوة من ابن الأحمد لم تتبسم لها الحياة، بل عبست ومثلها عبس ابن الأحمد.

صوته كالنذير. وملامح وجهه كوجه صخرة عذبها المطر، ومرت عليها الريح فأضرت بها، ثم تركتها في عذابها وسوء حالها.

قالت زهوة لجاريتها:

- ما هذه الزوجة التي تزوجها ابن الحسن؟!
- ابن الحسن لا يتزوج هكذا امرأة إلا لمصلحة!
- المصلحة..؟!!

تساءلت زهوة من خلال كلمتها هذه ومطتها، حتى انقطع صوتها.. فأحست زوجة ابن الصالح برغبة جارتها بالإيضاح والشرح وشغف زهوة بالأخذ والرد..، لأسباب كثيرة، أهمها أن ابن الأحمد لا يشرح، ولا يدخل في متاهة الأخذ والرد.. بل يوجز، وإيجازه صاعق وصارخ ومخيف.. يقول لزهوة، إذا أراد أن يخبرها بأمر من الأمور، أو أن يطلب منها أي طلب، يتعلق بالبيت أو الطعام أو الجيران: زهوة اعلمي كذا.. أو فلان لا يحب.. أو هذه الأكلة ليست تليق بالمقام.. يقول جملة المصحوبة بالسخط، في جميع الحالات.. ولعل الحالات عنده لا تتميز: السخط كالسعادة كالرضى.. صوته مؤذٍ للسمع لا حنان فيه.. ومن أين له بالحنان وروحه عذبتها الأيام عذاباً لا نهاية له.. أحست زوجة ابن الصالح بما يدور في نفس زهوة فأرادت أن تشاركها في إحساسها:

- زوجة ابن الحسن، لا شك، في أن وراءها حكاية، وإلا لما تزوجها.
- أنت تعرفين أكثر مني..

أرادت زهوة أن تبقى مع جارتها، إلا أن صوت ابن الأحمد جاء ساخطاً منذراً.

- أنت إلى الآن عند زوجة ابن الصالح، وأنا هنا جائع أنتظر طعامك يا بنت الأسود.. الحنطي.. يا بنت حمدان المحجوب؟

كل من في الحارة العتيقة والحارة التحتانية، سمع نداء ابن الأحمد وفهم كلماته فهماً، لا حاجة معه إلى الإيضاح. يوسف بو حمود و(الجيلي) وسببه وشياله سمعوا صوت ابن الأحمد، وزوجة يوسف بوحمود وزوجة كريم وزوجة ابن الحمودة أيضاً سمعن النداء الجائع، الذي جاء من جهة حارة الساقية..

قالت زوجة يوسف بو حمود:

- ابن الأحمد صوته لا يتعب.

- عقت زوجة ابن الحمودة:

- الصوت نعمة وخير.. ابتسمت زوجة يوسف بو حمود ابتسامة ضحلة،

وكأنها تقول لجارتها: لم أسمع أحداً قبلك، يصف صوت ابن الأحمد بأنه نعمة وخير!!

لم ينقطع صوت ابن الأحمد، حتى سمع صوت زهوة وقد لمحها وهي تمشي على عجل وخوف..
أجابت زهوة:

-تأخرت في ملء الجرة بالماء يا ابن الأحمد.. لكنني لن أتأخر في إرسال الطعام لك مع رباب.

في ملاحظة زهوة اعتدال.. فلا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة، ولا هي ضخمة الكتفين، رغم شتائم زوجها الدائمة لكتفي والدها.. لكن حياة الشقاء أتعبتها كما قالت في نفسها زوجة ابن الصالح، بعد أن تركتها واتجهت عبر درب الساقية إلى حيث درب المرح والكروم ودرب شجرة التوت وبيت أبي يوسف.. زهوة بقيت ترسم صورة عمرها الأسود، وصارت تمزج، من حيث لا تريد صورة (الغريبة) بصورة عمرها.

الأرض التي أخذها ابن الحسن من زوجها، عاشت زهوة أكثر حياتها فيها.. حتى في أيام والده، كانت تساعد والدها (حمدان المحجوب) في نزع الأشواك من جوار الأشجار، وفي حفر الأرض لزرعها، وفي حمل الماء من نبع الساقية.. وقد أحبها ابن الأحمد، حسب تصريحاته، أحبها أكثر ما أحبها، حين كان يراها تحمل الجرة وتصعد من نبع الساقية إلى حيث والدها (حمدان).

عانت زهوة نفسها وصورة والدها تملأ خيالها، أثناء صعودها باتجاه درب شجرة التوت والحارة العتيقة: "كيف رضيت بالزواج من ابن الأحمد، وكيف نصحني والدي بالقبول به؟! ابن الحسن نفسه طلب الزواج مني.. وغيره كثيرون أحبوا أن يقتربوا مني.. أبي هو السبب.. سامحتك الأيام يا أبي يا من سماك أحمد السعيد (حمدان المحجوب) أضاف إلى اسمك صفة المحجوب وأنت حجبت عن نفسك المعرفة وضعفت عندك الدراية، فرميتني شر رمية.."

تابعت خطواتها الكسلى.. وخيالها الكسلان لم تنم مواجهه.. ظلت ترى (الغريبة) وتتخيلها في حالات شتى، وتتخيل معها ابن الحسن الذي اشتهر بالكذب والتصرفات الملعومة والخداع.. مرت بكرم ابن الصبرة، وكان يفلح أرضه، ومعه زوجته فلم تنتبه إليهما.. أخذها انشغالها بخيالاتها وهواجسها، وأبعدها من حيث لا تريد عن رؤية ابن الصبرة وزوجته... ابن الصبرة قامته قصيرة قصراً بيناً، لكنه

يُرى جيداً بالعين المجردة.. وقصره لا يبرر لزهوه عدم رؤيته وتحيته.. وزوجته تشببه في كثير من الأمور: قامتها ليست أطول من قامته.. وعيائها كعينيه تنظران بعناية وإمعان إلى المارين، وإلى الأرض والأشجار.. وسمعها حاذق كسمعه، يسمعان الأصوات ويعرفانها.. وغضب ابن الصبرة لا يتزامن مع غضب زوجته.. واهتمامه بالدجاجات والبقرات لا يرقى إلى مستوى اهتمامها.. وتعامله مع لفافة التبغ يؤذي اللفافة، ويؤذي شفثيه فهو أكثر وقته يحاول عض اللفافة عضاً مؤذياً.. وإذا لم تكن اللفافة، فقد يكون الهواء أو شفتاه.. أما زوجته فلا تضحك في كل الفصول.. ولعل شفثيها مشغولتان باجتراح أحزان قديمة تركت آثارها على ملامحها وعلى عمرها كله..

عجب ابن الصبرة لأمر زهوه: كيف تمر دون أن تلتفت إليهما بتحية ولو عاجلة كعجلة رباب في التهام صحن البطاطا المسلوقة؟!

قال لزوجته بعد أن أوقف عضه للفاقة المعذبة:

-كيف تمر زوجة ابن الأحمد، ولا تنظر إلى جهتنا.

-ابن الأحمد من يعاشره لا يعرف شرقه من غربه.. وزهوه كتب عليها معاشرته، وكتب عليها الشقاء معه.

انفجرت أسارير ابن الصبرة، لأنه اعتبر كلمات زوجته عن قسوة معاشرته ابن الأحمد، بمثابة اعتراف منها بأن معاشرته حنونة وغير متعبة..

أحب ابن الصبرة أن يستمر في حديثه مع زوجته عن ابن الأحمد وزهوه:

-هل تكون تأثرت بشتمه لها بصوت عال؟

-إنه لا يشتم ولا يتكلم إلا بصوت عال يا ابن الصبرة.

-لقد أخطأت إذ وقفت عند زوجة ابن الصالح، ونسيت أمر الطعام.

-ابن الأحمد همه الطعام..

آمال يسيرة شغلت زوجة ابن الصبرة عن متابعة الحديث:

هل نسيت أن تملأ جرن الماء المخصص لسقي الدجاجات.. والباب الرئيسي المؤدي إلى الغرفة الكبيرة هل أغلقته، خوف أن تدخل الدجاجات إلى البيت وتترك هداياها المتواضعة (مصعات مختلفة القياسات والأحوال) بعضها كبير وبعضها صغير وبعضها لا شكل له.

فكرت بولدها البكر محمود الذي انصرف عن متابعة الدراسة إلى شؤون

أخرى.. هذه الآمال غير العريضة، شغلت أم محمود عن متابعة الحديث مع زوجها المقبل على الحياة والعمل وفلاحة الأرض القريبة من البيت والساقية أيضاً.

الدرب بين قرية ولد أبي يوسف الثاني، وبين قرية شجرة التوت ليس طويلاً، أو متعباً: تحيط به كروم الحارة الغربية، وكروم (حارة السماق) والساقية قريبة منه..

وأبو يوسف يشعر بالألفة والعلاقة الطيبة مع هذا الدرب وهذه الكروم، التي يعرفها جيداً.. يعرف تخومها تخماً تخماً، ويعرف أصحابها، وأشجارها.. يسير عبر هذا الدرب، تؤنسه ذكريات الأيام المريرة التي عاشها مع الكروم، يعمل النهار بطوله وعرضه.. لكن هذه الأيام، وإن كانت قاسية، صارت في عالم التذكر، الذي لا يؤذي كثيراً..

باب بيت ولده الثاني (سعيد) مجاور تماماً للدرب.. يفتح الباب ويخرج فيستقبله الدرب، فإما أن يسعى غرباً إلى بيوت (قرية الرمان) ومنها إلى القرى الأخرى، وإما أن يسعى شرقاً إلى كروم وحارات قرينته الباقية..

بعد جدال لا تحمد عقباه ولا بداياته مع أم يوسف خرجاً معاً: أبو يوسف، رغم انحناء ظهره، التي ازدادت وضوحاً بعد تركه بيته والشجرة الكبيرة.. رغم الانحناء، ظل ينظر بحب وحذق ودراية إلى الكروم وتخومها ومن ورائه أم يوسف تشغل يديها، بشكل مستمر، بربط المنديل الأبيض بعض الشيء، أو بشده وبتغيير وضعيته، على رأسها.. وشفاتها لا تنقطعان عن الزم والانشداد والارتقاء، وكأنها تمضغ طعاماً شديداً. قالت أم يوسف:

-ألا نفكر بحال ولدنا الكبير وحال زواجه؟؟

دون أن يلتفت إلى الوراء أجاب:

-أمرك أمر عجيب.. وقفت في وجه زواجه من (عهيده) بنت قريبنا وقريب (عبدو الشاعر)..

-أمها لا تعاشر، ترى نفسها فوق الناس، وهي دون الناس.

-أمها مثلك تبقى غاضبة على كل شيء وكارهة لكل شيء، دون أن تعرف السبب.

ثارت ثائرة أم يوسف، وزادت من زم شفيتها، وشدت منديلها شداً صعباً، وهمت بالرد على زوجها، لكن لعاباً كثيفاً اعترض صوتها، فتأخرت بالإجابة غير الشافية على كلمات زوجها..

أبو يوسف لم يعد إلى الحديث أملاً منه في أن زوجته أقفلت باب الأسئلة والنكد.. لكن أمله قتل شرقتل، حين عاد صوت أم يوسف غاضباً..

ابتعدا عن بيت ولدهما (سعيد) لكن صوت زوجته، التي لا تحبها أم يوسف، صوت زوجة (سعيد) ظل مسموعاً، وهي تصب (جام وبرميل غضبها) على زوجها عاثر الحظ.

أبو يوسف يعرف أن ولده (سعيداً) ليس له من اسمه نصيب لا وافر ولا قليل، فزوجته تشبه شجرة رمان شوكتها حاد وثمارها متعبة وقليلة، وعلى (سعيد) أن يعيش حذراً من أن تتاله الأشواك بالوخز المبرح: وحذره لا ينفعه نفعاً واسعاً، في تفادي الوخز، والوخز في يده وروحه وحياته صار الحكاية المستمرة..

قال أبو يوسف، وصوت زوجة ولده يصخب في سمعه:

-ألا تظنين أن زواج ولدنا الكبير من (عهيده) يكون أخير له من زواج ولدنا الثاني؟!!

-حظ الثاني أتعس من حظ الأول..

توقفت زوجة سعيد عن الصخب، فتاه الصوت.. واستراح سمع أبي يوسف.. لبعض الوقت. ولن يستريح طويلاً، لأن صوت أم يوسف ليس أقل أذية لسمعه من الأصوات المزعجة الأخرى.

بيوت (قرية الرمان) صارت وراء، وعن يمين الدرب.. حيث السفح المجاور للساقية بانث (قرية التين) قال أبو يوسف، محاولاً إضفاء جو من المودة بينه وبين زوجته، تجنباً لسخطها الدائم:

-هل تشاهدين البيت المجاور للسفح يا أم البنين؟!!

-ما هذه الأسماء التي تطلقها عليّ وكأنك صرت شاعراً أو فيلسوفاً؟!!

-أم البنين اسم قديم سميت به نساء جميلات وعاشقات؛ فلماذا تكرهين أن أسميك به؟!!

-اسمي يكفيني، وأنا لست محتاجة للعشق والجمال.. أعطتني الأيام ما يكفيني من كل شيء..

قال أبو يوسف سراً: "أردنا المودة مع أم يوسف، فانقلبت الأمور عكساً".
أم يوسف لم تفهم معنى كلمات أبي يوسف (أم البنين) و(العشق) و(الجمال)
العشق معناه عند هذه الزوجة، التي اختصها الدهر بـ (حدوة) لا مثيل لها في
تاريخ الأحذية، واختصها عمرها بعبوس دائم، لا يترك ملامحها، وكأنها ستمطر
سخطاً وتعاسة..

تظن أن (العشق) نوع من أنواع الحلي أو نوع من الحلويات.. المهم في
الأمر أنها لم تجرب في حياتها هذا الفن العجيب، ولم تفهمه ولم تسأل عنه، ولهذا
وجدت في نفسها سخطاً كبيراً على زوجها، حين كلمها هذه الكلمات، لظنها أنه
يسخر منها وهو . قد يكون . مزج السخرية بشيء من مودة، فتذوقت أم يوسف
طعم السخرية، ولم تتذوق الطعم الآخر. عاد أبو يوسف للحديث أملاً منه في بث
روح المودة بينه وبين زوجته، رغم إحساسه أن روح المودة تختنق متى صادفت
زوجته..

عاد أبو يوسف إلى الكلام، وأمله بالمودة أضعف من أمل أسعد الشحاذ بأن
يكون أنيقاً ونظيف الثياب، وقليل رش اللعاب. قال أبو يوسف:

- هذا البيت هو بيت (حمدان المحبوب) والد زوجة ابن الأحمد، ورثه ولده.
أدرك الرضى قليلاً مزاج أم يوسف، وراق لها أن تتجاذب مع زوجها أطراف
الحديث.. والخوف من أن تشد الأطراف بعنف، فيتمزق الحديث، وهذا قدر هكذا
أحاديث..

قالت:

-أنا مستغربة لأمر زهوة!!

لماذا مستغربة؟

-لماذا تزوجت ابن الأحمد، وتركت واحداً مثل (ابن الحسن)؟؟

-والدها حمدان الذي وصفه أحمد السعيد بالمحبوب، هو الذي زوجها لابن
الأحمد.. وأنا أعرف كيف تزوجت..

-الحق مع أحمد السعيد أنه سمّاه (المحبوب).

-هذا كلام حسن يا أم يوسف.

-صرت تنفصح مثل (الجبيلي) ولعلك مع الأيام، ستصير شاعراً مثل
(عبدو الشاعر) انقطع حديث الزوجين، لأن أحداثاً كثيرة وقعت في قرية شجرة

التوت، عادت إلى رأس أبي يوسف تدور فيها، وتصخب أكثر من صخب صوت أم يوسف: "سعيد لم يطلب الزواج إلا بعد أن عمل عند (ابن الحسن).. وزواجه رتب وعدت عدته سريعاً.. وسعيد هو الذي خالف رأيه رأي الجميع، وترك البيت، وقد حاول غير مرة قطع (شجرة التوت) بحجة أنها تمد جذورها في العميق من الأرض، فتضعف أساس وجدران البيت.. أين كان تفكيرك يا أبا يوسف عن هذا الأمر؟!"

لم يدم تفكير أبي يوسف بأحداث شجرة التوت، التي مرت عليها الأيام، لكنها لم تمحها.. لم يدم تفكيره لأن صوت زوجته جاءه كالمنبه المزعج.
بيت (الجبيلي) باقٍ على حاله، وأخته (سبهه) على حالها...
-ونسييت حال (شياله) المياله يا أم يوسف الخيالة ونسييت حال يوسف بوحمود وحال دكانه؟
-اليوم فصاحتك زائدة.

أم يوسف لم تعرف إلا نتفاً غير كافية عن حياة (شياله) ولعلها لم تسمع أي كلام مفيد أو غير مفيد عن حب يوسف بوحمود لها... لأن هذا الحب العاصف على طريقة (أسعد الشحاذ) ذاع أمره، بعد أن تركت القرية.
لم ينتبه أبو يوسف طويلاً إلى بيوت شجرة التين المجاورة للسفح والساقية. وزوجته المصون، نظراتها من نظراته، وانتباهها كانتباهه.
شجرة التوت التي أمام بيت (الجبيلي) كانت كبارق حب، لمع في ليل بغضاء وكراهية، لكن المفاجأة التي هزت وجدان أم يوسف، هي أنها رأت الدكان مغلقاً على غير عادته.

(الجبيلي) وسبهه لم يكونا إلى جوار التوتة... وحدها كانت شياله وقد خرجت إلى المصطبة، وهي تفرك عينيها، محاولة منها لإزالة بقية نوم علقت في الجفنين والأهداب... وقد ازدانت عيناها بهذه البقية، التي بانّت كالنعاس الحنون...

أبو يوسف، رغم بؤس تجربته الغرامية، راقه أن يعاين بهاء شياله، وراق له أن يشبهها بشجرة التوت، قال لأم يوسف:

-شياله، بورك حسنهما، إنها تشبه الشجرة الكبيرة
-هذا الكلام ما سمعته منك في يوم من أيامنا... أنت خيرك لغيري.

وهل قدمت خيراً لأحد؟

-ألا تقول إن شياله حسنها مبارك، وإنما تشبه الشجرة الكبيرة؟

شياه سمعت أكثر كلمات أبي يوسف وزوجته، وقد أمتعها الإصغاء إليهما، وتمنت أن يصعدا إلى المصطبة.

أبو يوسف، لا ينسى أن يبادر من يصادفه بالتحية، فكيف إذا كانت شياله هي من سيبادرها بالتحية؟

تحيته جاءت حنونة كدفق نبع خالص العذوبة... وكذا جاء رد التحية. أم يوسف لم تشغلها التحية المتبادلة بين زوجها وشياله، إذ وجدت نفسها منشغلة بإغلاق يوسف بوحمود باب دكانه: أحست بحزن شديد، يضرب صدغيها، ويؤدي طمأنينتها، لأنها وجدت الباب مغلقاً، وقد ألقته مفتوحاً... تحمل له البيضات كل يومين أو أكثر، وتبيع البيضات أو تستبدلها بحاجات أساسية للبيت.

-دعت شياله أبا يوسف للجلوس على المصطبة.

فلم يصعد رغم رغبته الأكيدة بالصعود والجلوس...

سألها:

-أين (الجبيلي) وسبهه؟

-مشغول هذه الأيام بالرعي والديق... وسبهه قد تكون ذهبت إلى أرض الساقية، أو إلى أرض الحارة الفوقانية، أو إلى الدكان.

صوت أسعد شاغب على حديثهما، لكنه لم يبتهره... أم يوسف وحدهما بترت حديثهما: لتسأل عن حال الدكان وقد سمعت كلمة شياله، عن سبهه إنها يمكن أن تكون ذهبت إلى الدكان... سألت بوجع وحرقة وتلهف:

-أين صار الدكان؟

-نقل يوسف بوحمود دكانه إلى الحارة الفوقانية. قالت كلماتها، وغصة ثقيلة تعذب صوتها المشغول بالرقعة.

قال أبو يوسف وهو ينظر إلى شياله، مخاطباً شوقاً طيباً في نفسه: "لماذا يترك بوحمود دكانه هنا، وينتقل إلى حارة أخرى؟".

قرأت شياله السؤال في صمت أبي يوسف وتأملاته؛ أما الزوجة العجيبة فلم تقرأ شيئاً، وبقيت مع أيامها في قرية شجرة التوت، يوم كانت تجمع البيضات وتحملها إلى الدكان.

صوت أسعد ازداد علواً واقترباً... من بعيد نادى:

-أين ابن عمي الجبيلي، يتلو من كتاب الرعي فصلاً؟

لم تجب (شيواله) واكتفت بالالتفات إلى حيث بان أسعد وهو يحمل كيسه العجيب، ويشمر بنظونه عن ساق، ويبقيه على ساق، وفي فمه لفافة لم يشعلها. بل تركها تعاني ويل لعابه وعضه من غير إشعال، وهل مؤذ الإشعال أي إشعال، أكثر من لعاب أساسه الآلام والحرق والغصص.؟!

شاهد أسعد أبا يوسف ومنديل زوجته التي يخافها خوفاً عالي الهمة.. أطلق العنان لشوقه وصوته:

"أبو يوسف السيد المحبوب لقلبي وروحي كفاك تقول للحلوي: وروحي... لأم يوسف يحلو العتاب"

أسعد، متاهة العمر المسيح بالمرارات والشوك القاسي، متاهة العمر، لم تفقده أن يبشر بالحب، ولم تفقده شجاعة التعبير عن الحب... وقد يكون استفاد من المتاهة القاصمة للظهر، وغير الظهر أن يقول الحب كلاماً طيباً، رغم فوضاه.

وقفة (شيواله) زادت بها، وعباءتها المطرزة، قدمت أيامها، لكنها بقيت أنيقة عليها... وعيناها الناعستان، ووجهها الطافح حياة، وشعرها المتروك على حاله.

(شيواله) محط دهشة وراحة نفسية خاصة... وأسعد يحس بهذه الدهشة والراحة، لكنه لا يعني بها إرادياً، لعلمه الأكيد، أن حظه من شيواله ليس أفضل من حظه من الأيام وعمره وهو يخبر نفسه دائماً، عندما تميل إلى بهاء شيواله: "أنت يا أسعد لا تليق لواحدة مثل شيواله. بل لا تليق إلا للكيس تحمله وتسعى في دروب القرى والحارات، بحثاً عن لقمة العيش، أو أية لقمة غيرها".

أخبر أسعد نفسه هذا الخبر على عجل، وهو يقبل على المصطبة ليلقي التحية على شيواله أولاً، ثم على أبي يوسف وزوجته، التي امتدحها من بعيد، أملاً منه بقليل من رضاها النادر... أقبل على شيواله بسعادة، وكيسه لم يفارقه، ورائحة الوسخ المتراكم على ثيابه وجلده سبقته، لكن شيواله تعودت مكرهة على أن تستقبل أسعد ورائحته وكيسه، وأن تسقيه الشاي، وأن تطعمه الكعك إن وجد.

صافحها على عجل، وهزّ يدها بقوة، كمن يهزّ الريح، ثم هبط درجات المصطبة إلى حيث أبو يوسف وزوجته التي لم تودع شفتها حالة الزم الدائمة...

ابتسامه أبي يوسف أشعرت أسعد بالسرور... لكن تحية أسعد لم تشعر أبا يوسف بالاستقرار - بل أشعرت بالاضطراب، إذ قبله قبلاً مصحوبة باللعب،

ومصحوبة باللطم المبرح. ووجنتنا أسعد قاسيتان كرمانتين يابستين، راح بهما يضرب وجه أبي يوسف. وهذا الضرب بالوجنتين هو التقبيل الأسمي وهو التعبير الأصدق عن عميق الحب ووافر الشوق، في عرف أسعد.

شياله حمدت الحظ والدنيا أن أسعد لم يوفق في عمره إلى تقبيلها، وكذا أم يوسف التي راعها ما رأت من تقبيل أسعد الانفجاري... وراعها أكثر أنها رآته ينجز تحيته لزوجها ويتوجه إليها. إذ قدرت أن غيمة من لعابة ستحط رحالها على مندبيلها ووجهها، ولا أمل لها بالفرار من تحيته ولعابه، وأسئلته الاطمئنانية عنها وعن أولادها وعن واقع حالها ودجاجاتها وما آلت إليه مصائرهما، بعد تركها في عهدة زوجة كريم.

عاينت شياله عناق أسعد لأبي يوسف، وقد أشفقت عليه... وعاينت تحيته لأم يوسف وأسئلته المتلاحقة المصحوبه بالكثير من اللعاب بعيد المدى:

كيف حال حبيبة القلب أم يوسف؟ وكيف حال الأولاد الأفاضل؟

وكيف حال الجيران وأنت خير العارفين يا أم البنين؟

وحال الدجاجات كيف هو بعد أن تركت قرية شجرة التوت وكنت زينتها ومباركة فيها؟!!

أبو يوسف أخذه الضحك، حتى غامت عيناه بالدمع... وشياله وجدت نفسها تسند ظهرها إلى جذع التوتة، من ثقل حالة الضحك التي سيطرت عليها سيطرة تامة، وهي ترى أم يوسف في حومة لعاب وأسئلة ومدائح أسعد التي لا تقدم ولا تؤخر.

كاد أسعد ينسى الكيس البائس الشقي على المصطبة، لولا أن نبّهه أبو يوسف:

- هل تترك كيسك يا أسعد عند شياله؟

- كيف أنساه يا سيد الأسياد والعارف بأحوال شجرة البلاد، والمحب لخير العباد، وعلى صوت أسعد معتاد، وياكراً أذاك الرشاد كجمل إلى الرعي منقاد...

- لا تكمل مديحك يا أسعد لأنك إن أكملت لعنت نفس من مدحت، فاطلب الدم بدل المديح...

شياله ودعت أبا يوسف وزوجته وأسعد، وسارعت إلى حمل الكيس ورمته من على المصطبة إلى حيث أسعد فتح كفيه، كمن ينتظر هبة من الغيم أو يبحث

عن طائر فلا يأتي، بل يرمي (مصعته) فتكون ملء الكفين. وهذا قدر منحوس كأسد.

أم يوسف لم تنتظر وداع زوجها المتمهل، إذ آذاها أن ترى باب الدكان مغلقاً... أسعد كاد يصطدم بأبي يوسف ويسقطه أرضاً ويهوي فوقه، وهو ينظر إلى شياله ويودعها على طريقيته الشاقولية والأفقية.

فرح أسعد حاله كحال كيسه، مفجوع بالأناقة والترتيب. وقد بان ذلك على حركاته ووداعه لشياله: رفع يده اليمنى، ثم رفع اليسرى، ثم بدأ يمسح رقبته، كمن يتنفس ببط الرقبة، وكأن الهواء الطلق أبعد من أنفه وأنفاسه، فحين يمسح رقبته يقترب من الهواء الطلق...

شياله انصرفت عن أسعد ووداعه، الملحاح، الذي كاد يسقطه ويسقط معه أبو يوسف، الذي تمالك نفسه، ومال إلى الجدار، فاستند إليه.

الجرة الكبيرة المركوزة إلى جوار الحائط أساسية في حياة (الجبيلي) والمصطبة الواسعة... والدرب الواصل بين الدكان والمصطبة علامة فارقة وحد فاصل بين البيت والدكان، وبين (الحارة الفوقانية) و(الحارة التحتانية) لكن هذا الدرب صار موحشاً، بعد أن نقل يوسف بوحمود حاجاته، وعمله إلى حارة أخرى... أحست أنها بحبها ليوسف، غامرت مغامرة صعبة، إذ كان عليها أن تتأمل واقع حاله وحياته وزوجته وأولاده، قبل أن تسمح لمشاعرها بالانسجام مع مشاعره:

يوسف اهتم بها اهتماماً خاصاً، وأشعرها بحبه لها، وازداد معها شفافية وعذوبة.

وقد تكون هي السبب في ازدياد شفافيته. لكنها جهلت أن هذه الشفافية قد لا تثمر حباً مطمئناً، ما دامت حياته متداخلة ومتشابكة تشابكاً لا يدع المجال متاحاً أمام الحب لكي يطمئن ويهنأ.

قالت شياله لنفسها: "يوسف بوحمود ترك الدكان تحت ضغط زوجته وكريم، ورسائل أسعد، التي تقضح أي حب، مهما كان محاطاً بالكتمان... وزوجته على حق في أن تفعل ما تفعل من أجل حياتها".

في الأرض القريبة من الساقية بان (الجبيلي) وهو يسعى وراء الخراف والبقرة
وبانت (جاكيتته) الشقيانه، التي عاشرتة طويلاً... وهل لها من حيلة في ترك
معاشرته؟

خيالات شياله، سرحت مع سرحان قريبها... وتاهت في تأملات أولها
موحش وآخرها:

«الجبيلي» ترك قرية النبع وجاء مع أحمد السعيد... هرب من العوز
والحاجة فسقط في وحل العوز والحاجة. وسبهه، تبعت الجبيلي، فعاشت نفس
حياته... في قرية النبع كانت أيامنا واضحة السواد كنت ألتقي (عبدو الشاعر)
ويقرأ عليّ من أشعاره، ويغني، ثم غاب وابتعدت أغانيه... تزوجت من غير أمل
أو تفكير، فكان زواجي بانساً شريراً كزواج سمر وأختها جوهرة...".

تأملات موجعة للرأس والروح استبدت بنفس شياله، فأبعدتها عن الأفق
والكروم، ونسيت أن عليها إعداد الطعام... وإعداد الطعام في بيت الجبيلي عمل
متعب ويبيعث على الضيق... بقيت في ذهولها إلى أن جاء صوت ابن الأحمد
وهو ينادي زوجته، لترسل له الطعام...

صوت ابن الأحمد نبه شياله إلى ضرورة السعي في مجاهل البيت بحثاً عن
أواني ومعدات ولوزام الطبخ... دخلت إلى البيت، دون أن تنتظر إلى أن العتبة
تكاد تسقط من قدمها وتسوس خشبتها العريضة... وكيف تنتظر إلى عتبة البيت،
ونفسها وحياتها كلها عتبات، لا بد من الاصطدام بها والمعاناة معها كل وقت
وحين.

بدأت التعاسة تؤذي ملاحه شياله... وكيف لا تؤذيها التعاسة... وحياة
الجبيلي وسبهه، لا تجود بغير الشقاء المبرر وجوده... بقيت تنتظر إلى نفسها،
فتصطمم بالأسف والآمال الصريعة... وتقول: "لم يتحقق لك يا شياله أي موعد
يليق بالحياة المدرسة ضعت عنها قبل أن أكمل المرحلة الثانية... (عبدو الشاعر)
ضاع عني وضعت عنه... زواجي كان الأرض الخربة، لا يخبي إلا الخراب
والأذية... يوسف بوحمود أحبني فكانت الحياة أقوى من حبه ومنه، فهرب من
حبه تحت ثقل ضربات الحياة والأيام..."

في داخل البيت الأغراض في حال من الفوضى والتفاهة المفرطة: الصحنون
في جهة من جهات الرف... والقدر في جهة أخرى الاهتداء إليها ليس هيناً.

والقمح المجروش في كيس، البحث عنه متعب كحب يوسف بوحمود، أو

كمعاشرة ابن الأحمـد... والملح في كيس ليس محددًا... والعدس أيضاً في جهة غير معلومة تماماً...

الجرة، وحدها، محدد مكانها، وغطاؤها... والجرة وحدها ليست كافية... وما على شياله المليحة إلا أن تبحث وتسعى وراء الأكياس المعلق بعضها والمتروك على الأرض بعضها.

ابن الصبرة علاقته مع الأرض والأشجار، لا تتعب، لكنه تميز بحبه لـ (الحلاوة) أكثر من تميزه بحب الأرض والأشجار، أو أي حب آخر... وقد يكون حبه (للحلاوة) يفوق حبه لزوجته (أم محمود).

لا يكاد يرى علبة (حلاوة) حتى يقبل عليها... وأكله لها فيه براعة عالية، إذ يدفع بكمية من (الحلاوة) المهانة، إلى فمه المشهود له بعض لفافات التبغ، والمضغ المتعجل... يدفع بالحلاوة إلى فمه، فلا تبين حركة المضغ على الفم، حتى يدفع بحلاوة أخرى... يجتهد ابن الصبرة اجتهاداً واسعاً في أكل الحلاوة، والتعبير عن حبه لها، والتحدث عن منافعها، التي لا تحصى... وقد اشترك في مباراة محدودة، في دكان (بومحمود)، وكانت نتائج هذه المباراة دائماً في صالحه، وفي غير صالح علب الحلاوة، التي تقع عليها ويلات المباراة والالتهم العجول.

شهد له ابن الأحمـد، وهو من محبي الحلاوة، وغيرها، من أصناف المأكولات، شهد له غير مرة، ببراعة التهامه (الحلاوة).

هذه العلاقة الجديرة بالذكر، التي تربط ابن الصبرة بالحلاوة، هي قريبة الشبه بعلاقته بأرضه وأشجاره، و(أم محمود) زوجته، التي عاشت معه الأيام السوداء والبيضاء.

الساقية هي التخـم الفاصل بين (حارة الساقية) والكروم والحارة العتيقة... وأرض ابن الصبرة، تجاور الساقية، وأغصان شجرات الزيتون تتماذى، فيصل ظلها إلى النبع وإلى الدرب المؤدي إليه.

درب الرشاد عند أبي يوسف، هو أن يتصل الإنسان مع أهله وجيرانه، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، وأن يمتنع عن الأذى، وأن يكون صادقاً، وأن يتعب في حماية رزقه ونفسه من الخراب والأيدي الظالمة.

ابن الحسن أهمل نفسه وأهمل درب الرشاد، فلم يرده، ولم يسر عليه. فابتعد عن الجيران، وازداد ابتعاداً بزواجه من (الغريبة) التي بدأت بالأذية منذ حلت في حارة الساقية، حيث بيت ابن الحسن زوجها.

بيت ابن الحسن هو البيت الأبعد في الحارة، بل هو آخر بيوتها... تفصله عن بيت ابن الصبرة الأرض العالية، وكروم ابن الصالح وابن الأحمد وكريم... وهو يختلف عن ابن الصبرة في كل ملامحه تقريباً: ابن الصبرة قليل الطول، ورأسه ليس كبيراً كبيراً واضحاً، رأسه يتناسب مع قده... وعيناه حادتا النظرات... إذا نظر عرف... وإذا قرأ فهم... وطبعه حاذق، يعرف كيف يصرف أموره، فينتفع، دون أن يؤذي، وقد أفلح في صون رزقه، وبناء بيته، وفشل في تعليم ولده البكر (محمود) فقال عنه أبو يوسف:

ابن الصبرة لم يوفق في ولده الأول، مثله مثل أهل أحمد السعيد. أما ابن الحسن فقد طویل ورأسه مفلطح وعيناه شيطانتا النظرات، فلا يعرف أن يستقر بنظراته... وطبعه فوضوي، لا يهدأ على أمر، ولا يتعمق في قضية. وقد غاب عن الحارة وقتاً غير قصير، ثم عاد. وبعد حين من عودته تزوج (الغريبة) التي لا تعرف هويتها وحياتها، بالنسبة للجيران... وحدها زوجة ولد أبي يوسف الثاني، بقيت على علاقة طيبة أو غير طيبة مع ابن الحسن وزوجته (الغريبة) وبقيت تزورهما وتخدمهما.

- ضيق ابن الحسن الدرب.

- من قال لك هذا؟

- أنا نفسي ذهبت وعانيت في الوصول إلى النبع وفي الرجوع...

لم يكمل ابن الصالح وزوجته الحديث، لأن قامة ابن الحسن بانته... وقد سمع الزوجان صوت ابن الصبرة، وهو يرد تحية ابن الحسن... وسمعاه، وهو يسأله عن الأرض، وكيفية سقيها من النبع.

قال ابن الصالح:

-ابن الحسن مجيئه إلى ابن الصبرة سيؤذينا...
-الغريبة تكون قالت له: زيارة ابن الصبرة تنفع!
-وحكاية الدرب والنبع ستجرّ علينا البلوى، لأن ابن الصبرة إذا استقر رأيه على أمر، فلا يفكر بعواقبه.
ابتعد ابن الحسن وابن الصبرة باتجاه الساقية، أما ابن الصالح وزوجته، استطابا البقاء تحت أغصان (السنديانة) يتجاذبان أطراف الحديث. نظر الزوج إلى جهة الحارة العتيقة فبانّت له المصطبة المهجورة والجذع الذي فرّع وطالت فروعه، رغم الإهمال وبان له البيت الترابي... قال لزوجته:
-غياب أبي يوسف عنّا آذانا وأضرّنا!
-أولاده لم يقدّروا الأمور تقديرات صحيحة، فضاعوا وضيعوا معهم والدهم وضيعوا شجرة التوت وأيامها وأيامنا.
-عاد منذ أيام قليلة، وزار الحارة بيتاً بيتاً... ونام في بيت كريم.
-هل جاءت أم يوسف معه؟
-جاءت وزارتي.
ابتسم ابن الصالح ابتسامة هزيلة، لم تدركها الحياة، حتى اختفت وضاعت... وابتسامته إشارة واضحة إلى مشية أم يوسف وأسلوبها، وحياتها، وإشارة إلى كلمات أبي يوسف التي يصف بها زوجته.
لم تجب الزوجة على ابتسامة زوجها الملغومة، لأنها لم ترها ولم تنظر إليه، بل انشدت بنظراتها إلى (الغريبة) التي بانّت في الأرض العالية، وبان وراءها رجل وامرأة، قدّرت زوجة ابن الصالح أنهما ولد أبي يوسف وزوجته.
الغريبة تمشي وثوبها الطويل يكنس، ما أمكنه الطريق المتعرج بين الأشجار، وولد أبي يوسف يمشي وراءها محني الظهر، ما أمكنه الانحناء، لاعتقاده الراسخ، أن الانحناء ضرورة حياتية، لا مهرب منها، أمام العوز والعتبات الواطئة، أما زوجته الممثلة امتلاءً فائضاً عن الحاجة، لا تجد رغبة في نفسها بالانحناء، بل هي تكلف زوجها بهذه المهمة، أما هي فتبقى تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال... كسنديانة تهزها الريح، فلا تستقر أغصانها. وهي تشبه السنديان شعرها ملتئم على بعضه كورق السنديان... ورأسها غير بعيد عن كتفيها، وخصرها في ترحال دائم، إذ ضاع الخصر في البطن، والظهر في الظهر... فلا يمكن لعاشق

أو غير عاشق أو ناظر أو متنبئ بأحوال الكياسة والفراسة، أن يعرف الخصر من غيره ، أو البطن من الصدر أو الفخذين من الساقين، هي متماسكة متوحدة لا يعرف طولها من عرضها ولا حسننها من بشاعتها.

هذه الحال تتسحب على طباعها، فهي قوية صارمة... أنتها الأيام قوة في الطباع تفوق قوة زوجها... وقد أعجبت (الغريبة) في بعض سلوكها، وقد ملئها في بعض السلوك.

أحبت مقدرتها على ضبط زوجها ضبطاً تاماً، وأحبت جدارتها في العمل، لكنها لم تحب ملازمتها لزوجها. فالغريبة قد تريد ولد أبي يوسف وحيداً أحياناً، وقد أكدت عليه أكثر من مرة أن يحضر إليها، دون زوجته.

هذا واقع حال الغريبة مع الزوجين، عرفه الجيران أكثرهم. ابن الصالح وزوجته عرفاه جيداً... وفي الهواجر المطمئنة سمعا أحاديث الغريبة مع سعيد ومع زوجته. ابن الصالح قال لزوجته المندهشة بحياة الغريبة، وعلاقتها مع ولد أبي يوسف وزوجته:

- ما هذه المرأة العجيبة: سمعتها أمس تقول لولد أبي يوسف:

- أنت عزيز علي، وسأهتم بأمرك، فلا تبتعدا!-

زوجة ابن الصالح خبرتها في هكذا كلام، له علاقة بالحب أو ما يشبه الحب، بانسة أكثر من بؤس (الجبيلي) و(أسعد الشحاذ) تابع ابن الصالح حديثه، وشعور بالأسف يعترض حلقه كشوكة قاسية، أو كحلم فاشل صدئ، بقي في الذاكرة كوجع لا يذهب أذاه:

-كيف يسمح ولد أبي يوسف لنفسه أن يكون ضعيفاً أمام (الغريبة) التي نشرت الأذى في حارات شجرة التوت؟؟

ردّت الزوجة الملتمة على حزنها، كالبردان، الباحث عن دفء عصي... بعيد:

- هو أمام زوجته لا تقوم له قائمة إلا بأمرها...

-وابن الحسن مثله، لا تقوم له القوائم إلا بإذن الغريبة.

-لكن ابن الحسن غرّب في الدنيا وشرّق، أما ولد أبي يوسف فبقي من غير تغريب أو تشريق.

عاد الصوت إلى الهدأة الموجعة، لأن قامة ابن الحسن بانّت، وهو يصعد

من جهة النبع، وخلفه ابن الصبرة...

فرح طفيف كاد أن يحل على روح ابن الصالح وزوجته، لولا أن حضر ابن الحسن وابن الصبرة... فهرب الفرخ كطائر حنون أخافه دبق ابن الأحمد أو دبق الجبيلي.

أسف صخاب يضج في روح أبي يوسف: بيته مهجور، وشجرة التوت، قطعت، وعادت فرعت... لكن عودتها قد لا تدوم، لأن ولده الثاني يستجيب لإرادة ابن الحسن، والغريبة، فيضيق الأرض على الجذع المتبقي، ويحاول هدم البيت. الأرض المسيجة، التي كانت تحيط بالمصطبة وبشجرة التوت، لم يذهب سياجها، لأن أبا يوسف، بقي، يعيد عيدان السياج إلى حالها كما كانت: حتى إنه آخر مرة زار فيها الحارة العتيقة، استعان بابن الأحمد، على تركيز العيدان المرمية...

وتمنى على نفسه وعلى جاره أن يعاود بناء البيت.

قريبة أبي يوسف، حسب تسمية أم يوسف ليست لائقة لمقام ابنها البكر، الذي بنى بيتاً، وفرشه وبني بيتاً آخر إلى جوار بيته، خصصه للدجاجات، قالت له أمه:

-الدجاجات لا تضرك يا ولدي... تأكل بيضاتها، وإذا دعت الدواعي، إنك تأكلها... لكن لا تتعجل في ذبحها... فالدجاجات في البيت نفع ورزق...

-ومن يعتني بالدجاجات إذا ذهبت أنت وأبي إلى بيت أخي أو إلى حارتنا العتيقة؟!

-علم زوجتك القادمة على تربية الدجاجات قبل أي أمر آخر.

-هي بنت الدجاج!!

أرادت أم يوسف أن توضح لولدها خطأه، لكنها لم تفعل، لأن أبا يوسف أصلح ما حصل من خطأ، بابتسامته الهادئة... ثم أصحب الابتساماة بطلب

مشفوع بالرجاء، من الزوجة الصالحة أم يوسف، بأن تعد له ولولده البكر إبريقاً من الشاي:

- ما رأيك بإبريق من الشاي يا أم البنين؟!

- سأحضر لك ولولدك الشاي، لكن فلسفتك لا ترضيني!

- اعتبريني مثل الجبيلي فيلسوفاً وفصيحاً!

- اذكر الديب، فيحضر يا فصيح الفصحاء!

نظرت أم يوسف من الباب المفتوح، فلاح لها الجبيلي يسوق أمامه بعض الخراف، ويسعى باتجاه البيت المسور بالقليل من الحجارة والقليل من الأشجار.

من بعيد قال الجبيلي:

- هذا بيت ولدك يا جارنا العتيق يا أبا يوسف؟!

سمع أبو يوسف نداء جاره المقبل على الدنيا إقبالاً عجيباً... ونهض لملاقاته... وسبقه صوته:

- هذا بيت ولدنا... وقريباً سيصير بيت قريبتك!

شعرت الزوجة بأن أملاً كان بعيداً... اقترب بمجيء الجبيلي: أمل معرفة حب يوسف بوحمود لشياله... وأمل أن يخبرها عن حال دجاجاتها عند زوجة كريم.

ليس هناك مثل الجبيلي في رواية الأحداث... فأنت تراه يتكلم في كل الأمور التي يسأل عنها... ويهَيئ لكل أمر كذبة بيضاء أو سوداء، تليق بمقام المستمع، وقد لا تليق... المهم عند الجبيلي أن يتكلم، وأن يشعر بأنه رجل له مكانته اللائقة بين الحضور... هذا ليس ذا شأن بالنسبة لأم يوسف... أن يكون له مكانته أو من غير مكانة، الشأن عندها أن يخبرها بخبر حب يوسف بوحمود لشياله، وأن يخبرها، وأن يتحيز لصالح رأيها عن حياة عائلة عشيقة ولدها البكر... أما عن الدجاجات التي أبقتها أمانة دائمة عند زوجة كريم، فلا لواحد كالجبيلي من فائض من التفاح والأكاذيب، حتى يحقق لأم يوسف ما ترجوه.

سترة (الجبيلي) لم تتبدل، وكذا أمر حذائه، الذي لا يقل أهمية عن (حدوة) أم يوسف.

وقد بدأ الجبيلي، من حيث لم يرتب، بدأ حديثه عن حذائه:

- هذا النوع من الأحذية متين، وهو أمتن من حذاء ابن الأحمد.

أم يوسف رغم انشغالها بإعداد إبريق الشاي، ورغم أنها وجدت اختلافاً كبيراً بين ترتيب ولدها للأواني والحاجات والأغراض، وبين ترتيبها، وهذا الاختلاف يربكها. فهي تعلق الأكياس في مسامير محددة لهذا الأمر... والإبريق يبقى على الرف، حتى يطلب، أما عند ولدها فلا يوجد مسامير، ولا يوجد رفوف... يوجد كرسيان خشبيان كثيبان، وضع عليهما خشبة عريضة، وعلى الخشبة وضعت الأغراض والأكياس والكؤوس... هذا الأمر أذى مزاج أم يوسف، وقد فكرت بوسيلة ما، لرفع أي (ساموك) في بيت ولدها، لتدق فيه المسامير، وتعلق فيه الأكياس... أم يوسف لا تحترم أي بيت، مهما علا شأنه، وبيت ولدها ليس عالياً في الشأن أو في غير الشأن... لا تحترم أي بيت خال من المسامير والأكياس المعلقة بها... رغم ارتباكها وعدم ارتياحها لترتيب ولدها للأغراض، فقد سمعت كلمات (الجبيلي) عن حدائه، وتمنت أن تشارك في الحديث الحدائي، بنبرة موجزة أو مفصلة عن (حدوتها).

خراف الجبيلي ربطها أمام البيت خشية أن تفر هاربة وتعود إلى (البازار) القريب... الدرب الواصلة بين البازار والمدينة بين لا تخطئه الخطوات... والجبيلي يعرفه خير معرفة، من كثرة الذهاب والإياب عليه... ومن اللياقة بمكان أن يتحدث الجبيلي عن حدائه الصابر على قدميه، وعلى سيره الذي لا ينقطع... وعلى حراكه الدائم سواء بقي في الحارة التحتانية، أو ترك الحارة إلى المرعى القريب، أو إلى السفح المطل على الساقية، حيث أرض ابن الأحمد وابن الصالح وابن الحسن.

عادت أم يوسف وفي يدها الإبريق المربوط غطاؤه بعنقه، وفي يدها الثانية (الطبق) المحترم حسب تصريحاتها الدائمة، وعليه الفناجين المتروكة للأيام، فلن تنكسر.

ابتهج الجبيلي، لمشاهدة الإبريق والفناجين، ونسي في زحمة الابتهاج أن ينظر إلى وجه أم يوسف وعبوسها المستمر، وفمها مزمووم الشفتين... وانتقل من حديث الحذاء ومثانته ومقدرته على تحمل الوعر والمشقة وحماية القدمين، من أي جرح أو أذى... انتقل من هذا الحديث إلى حديث الطيور والصيد والدبق:

-كاد الطائر الكبير أن يصطاده الدبق لولا أن جاءه صوت ابن الأحمد!

-كيف هو ابن الأحمد بعد مجيء (الغريبة)؟

-التقيت به منذ يومين قرب الساقية... كان مغضباً من محاولة ابن الحسن،

إغلاق الطريق المؤدية إلى النبع.

-الطريق هذه في أرض ابن الصبرة... كيف يلغيها ابن الحسن؟!

حمارتا ولد أبي يوسف انشغلنا بحك جلدتهما بفروع شجرة التوت، وأحياناً بالعيدان المتبقية، في السياج الخشبي المسور للأرض الصغيرة المحيطة بالبيت والجذع القديم... وكاد انشغالهما بالحك يسبق انشغالهما بحرارة التراب النشف العطشان:

تشدان المحراث شدة أو شدتين، فتصلان إلى فروع الشجرة أو إلى عيدان السور، فيأخذهما الحك... حتى يأتيهما لسع عصا ولد أبي يوسف، فتعود إليهما الهمة المرهقة... وكان صوته يسبق عصاه، إذ يخاطب الحمارتين التعيستين بلهجة أمرة، ما أمكنه الأمر: هيه... شدي... هيه.

صوته ولسع عصاه محط اهتمام الحمارتين، لكن حيلهما ليس قادراً على الاستجابة لمطالبه في الشد والدأب.

لاحظ ابن الصبرة واقع حال ولد أبي يوسف، مع حمارتيه غير البدينيتين بدانة ملحوظة... وأخذته الشفقة على حاله... واستبدّ به الغيظ والقلق والسؤال:

هل يكون ابن الحسن فكر بزراعة أرض أبي يوسف بالتعاون مع ولده؟...

وهل يكون رمى بفعلته هذه إلى اقتلاع جذع الشجرة القديم، وتخريب المتبقي من الفروع، وقطع الدرب عن بيوت الحارة العتيقة؟...

علبة الحلاوة، التي اشتراها من دكان يوسف بوحمود شغلت عليه أنفاسه:

رائحتها تخرق العلبة والكيس الورقي، وتجاوز أنفاسه وتوقظ شهيته السهرانة دائماً والصاحية صحواً أكيداً، في حضرة (الحلاوة). رغم اهتمامه البالغ بالعلبة، التي سينال ما فيها من (حلاوة) بالمضغ وغير المضغ، حتى يأتي على آخرها.

رغم هذا الاهتمام آذاه أن يرى ولد أبي يوسف يفلح أرض شجرة التوت على حمارتين، لا نفع من فلاحتهما، وآذاه أكثر أن الحمارتين أمعنتا في حك جلدتهما بفروع الجذع المتبقي.

وقد خاطب نفسه أسفاً محزوناً، تصفر في ذاكرته ريح الأيام، وتشتكي في

صدره همهمة الحياة... خاطب نفسه: "أين أنت يا أبا يوسف من ولدك هذا؟... كنت تحرث كرم الساقية حراثة لا تشبهها حراثة... وكانت بقرتك حكاية الحارات... الكروم كلها تعرفك وتعرف مقدرتك وصبرك..."

هذا ما قاله ابن الصبرة لنفسه، وهو يعاين واقع حال ولد أبي يوسف ويعاين مكابذته ومعاناته مع الحمارتين... وقد نادى عليه لائماً عاتباً:

-فلاحة الحمير لا خير فيها يا ابن أبي يوسف.

-هذا حظي وقدري يا أبا محمود.

-ألم يوصلك أبوك باقتناء بقرتين أو ثورين؟..

صمت ولد أبي يوسف، وبدل الجواب قدم علبه تيغه لابن الصبرة، ليلف لفافة عريضة منها... وقد فضل الصمت على الكلام، لأن لسان ابن الصبرة، لا يعرف أن يخبئ تحته بعض الحكايات... جلس ولد أبي يوسف القرفصاء، بينما ابن الصبرة بقي واقفاً، وحرصه على علبه الحلوة بقي على أشده، فلم يرفع الكيس، ولم يتركه إلى حين انشغل بلف لفافة التبغ، من علبه ولد جاره العتيق.

دخان اللفافتين، أخذه النسيم فضاغ في الفضاء... وأسراب الطيور، لم تتوقف أجنحتها عن الخفق في جهات شجرة التوت... أسراب تقل أعدادها، وتبتعد جماعات جماعات... تسرح في الآفاق وفضاءات الأغصان، وأسراب أخرى تسعى في الأعلى، ثم تتحدر على مهل، أو على عجل تمر برؤوس الأشجار العاليه، وكأنها تقول تحياتها وبوحها... وبعد التحيات والبوح يستقر بها المقام قليلاً إلى جوار النبع وحفاف الساقية، أو قريباً من التخوم والعشب الطافح بالاخضرار بعد اصفرار، أو الطالع من أديم التراب، كالنمش المجتمع في وجه ابن الأحمد.

ابن الصبرة راقه النظر إلى الأرض والأشجار والطيور، التي لا يهدأ حراكها وكأنها في سفر قريب مستمر بين الأشجار والأشجار، وبين الآفاق والساقية والتخوم والعشب.

ولد أبي يوسف لم تسترح عيناه ظلتا ترقبان المدى المزدان بالخفق وصوت الصداح... وتتشدان، بين اللحظة واللحظة... إلى الساقية والدرج الآتي من الحارة المقابلة؛ وقليلاً ما كانت نظراته تتجه إلى ملامح ابن الصبرة، التي أتعبت المعاناة والمكابدات والأيام: في تجاعيد وجهه فصاحة ليست كالفصاحات... ليست كفصاحة (الجبيلي)... فصاحة بائسة وجديرة بحياته المسيجة بالشقاء... إنها

حكاية التعب والبحث اللجوج عن لقمة العيش... وجهه الصغير رغم تجاعيده المستبدة به استبداداً أكيداً، لا تفارقه حالتان حنونتان: حالة الشجاعة الهادئة والموجزة والسريّة أحياناً، حتى يصعب فهمها ومعرفة حاله... وحالة ثانية هي المودة المشفوعة بالطمأنينة... وأحياناً، لا تتجو من أذى الغيظ المتلبد في عمره وملامحه كغيمة سوداء ليست تنبئ بالمطر...

ولد أبي يوسف لا يجيد التأمل العميق، ولا يفكر بأحداث الحياة تفكيراً مصادماً بالإدراك، فتضل نفسه عن الهدى، وكذا يضل رأيه... لكنه رغم هذا يعرف أن ابن الصبرة يقول ما يدور في رأسه، ويبيدي رأيه وإن أدى به الآخرين... وهو ليس كارهاً، ولا باغضاً، رغم ما يظهر على ملامحه من المكابلات.

آمال صغيرة تلهو بها المخاوف، كلهو الطير بالغصن أو بالنسيم... هذه الآمال عششت في عمر ابن الصبرة منذ سنين بعيدة صار يعرفها ويفهمها، ولا يتعذب طويلاً في الوصول إليها وأحياناً تسلي روحه.

أمله الأول أن يبقى صحيح الحب والعلاقة... سواء كان هذا الحب بينه وبين أرضه والأشجار التي زرعها، أو التي ورثها عن أبيه؟ أو كان الحب بينه وبين الجيران وقد رده أمله هذا عن متابعة الطريق، مع ابن الحسن.

خشي أن يستمر معه، لعلمه الأكيد أنه لن يخلص من ألامه، وأنه لن يفهم مكره إلا بعد أن تقع الفأس بالرأس.

ورأس ابن الصبرة صغير حجمه، فلا يقدر على تحمل فأس خديعة ابن الحسن، الذي دربته الأيام وألامها فصار مكاراً عجيباً، كما قال عنه ابن الأحمدم وابن الصالح، وأمل آخر يشغل على ابن الصبرة حياته هو نبع الساقية، وأن يبقى يتدفق إلى جوار أرضه.

والأمل الذي فجع به ابن الصبرة، رغماً عنه... والآمال التي لا يخسرهما أمثال ابن الصبرة إلا مرغمين، لأنها تكون لهم كالإرث النفيس.

فجع بأمل قريب إلى كل مشاعره... قريب إلى حزنه وإلى فرجه وإلى حياته في حارة الساقية... هجر أبي يوسف لشجرة التوت وللحارة العتيقة، أفقد ابن الصبرة بعضاً من شجاعته، وخلخل طمأنينته...

كثيراً كان ينتظره على المصطبة التي أمام بيته، ليعيش معه ساعة أو ساعتين، في هاجرة من هواجر الصيف القاسية... كان يصغي إلى حديثه عن حر الهواجر... وكثيراً كان يلح حكايات وحكايات عرفها أو عاشها أو سمعها، ثم

يفلشها في حضرة أبي يوسف وشجرة التوت، فيحس بأن الحكايات أخذت مصداقيتها أو فقدتها.

غياب أبي يوسف أوجع روح ابن الصبرة وأفزع أمله بأن يعود الحب الذي كان.

كل هذه الآمال داعبت وأوجعت نفس ابن الصبرة الذي استمر حديثه مع ولد أبي يوسف، واستوقفته... ولم ييخل بالكثير من العض على لفافة التبغ العريضة، التي شاخت روحها، وهي بين شفثيه، وفي حومة العض المكين، الذي تميز به للفاقة، لا لغيرها، حسب تصريحاته القليلة حول العض.

بيت ابن الحمودة المجاور لبيت أبي يوسف تركه إلى غرفة بناها قرب شجرة الزيتون الكبيرة.

لكنه لم يهدمه، وجعله للمؤن والدجاجات والبقرة التي اشتراها من الجبيلي. ربط ابن الحمودة البقرة في الوتد القريب من الحائط، وملاً معلقها تبناً خلطه بالشعير المجروش، وانصرف إلى مرف الدجاجات المجاور لمكان البقرة... فلم يجدها قد أتت كلها إلى مرفاتها.

ترك الباب الخشبي المصدوع قليلاً، مفتوحاً، وخرج باتجاه المساء المزركش بحمرة الشمس المشوبة بالضباب والدكنة.

بيت البقرة والدجاجات يقابل بيت سكن ابن الحمودة... يبعد عنه مسافة قصيرة.

الدرب الرئيسي هو الحد الفاصل والواصل بين البيتين.

من الجهة الشرقية يجاور بيت ابن الحمودة القديم بيت ترابي قديم آخر، هو بيت أهل زوجة ولد أبي يوسف، الذي تركه والدها، وبنى بيتاً غيره من الأحجار والباتون في قرية زوجته المقابلة لقرية (الرمان).

والد زوجة ولد أبي يوسف ترك الحارة العتيقة وأقام حيث أرادت زوجته (أم رفيده).

وقد وجد التبرير لنفسه: "من يعثر على جمال كجمال زوجتي، عليه أن يرحل وراءه، حيث دارت به الدنيا، واتجهت به الدروب".

فاجأ سمع ابن الحمودة صوت ابن الصبرة وولد أبي يوسف، فعاجل الخطو إليهما... وقد باننت لعينيها قامة ولد أبي يوسف، ولم تبين له قامة ابن الصبرة...

وهو أيضاً لم يبين لهما، إلا حين خرج من الفسحة المحاطة بالجدار ... ابن الصبرة وابن الحمودة كلاهما لا يرتفع ارتفاعاً كبيراً على سطح اليابسه أو عن أي سطح، لكنهما عوضاً عن ذلك بالدأب على الحياة والمواظبة على العيش الكريم.. ورأس كل منهما شبيه برأس الآخر، ويختلف وجه ابن الصبرة عن وجه ابن الحمودة بكثرة التجاعيد التي لا تخفي أبداً -كثرة المتاعب وكثرة المودة والشجاعة... وعيناه أكثر حذقاً في النظرات والفراسة... ثم إن ابن الصبرة متقدم بالسن، ومتقدم بالكروم والأرض... كرومه مشهود لها بالمواسم ومشهود لمحرثاته بالمتانة، ولبقراته بالجلد على الحرثة... أما ابن الحمودة فكرمه صغير، ومحرثاته ليس من المتانة بمكان، كمحرث جاره وصديقه وصديق أبيه...

ولد أبي يوسف أكثر تعاسة من الاثنين... قامته مرتفعة عن سطح اليابسة ارتفاعاً مقبولاً، لكنها ليست مرتفعة عن سطح زوجته المصون (رفيدة)... وقد أدركه الانحناء الشديد، فصار يمشي مكباً كمن أضع شيئاً ثميناً وراح يبحث عنه... ووجهه كانت به ملاحه، ليست كملاحه أبيه، فجاءت عليه وعلى ملاحظته الأيام السوداء وصرخات زوجته الصخابه، كانهدام جدار عال، إلى منخفض بعيد القرار...

ولد أبي يوسف باءت، عيناه بالفشل، فلا نظراته حاذقة ولا فراسته طيبة، ومحرثاته بائس... ودأبه على العيش، ودأبه على الصدق حماه من ألسن الجيران، وحماه من قطيعة أصدقاء أبيه.

وقف الثلاثة ابن الصبرة على يسار الجدار... وابن الحمودة أسند ظهره إلى جذع شجرة الزيتون، أما ولد أبي يوسف بقي واقفاً مسنداً بعضاً من ظهره إلى جدار مصطبة بيت ابن الحمودة... وغبش المساء بدأت خيوطه تزداد وتتسع كعباءة فضفاضة بدأ النَّسَّاج نسجها.. ، والأسراب لم يخفها المساء المقبل... بل زاد سعيها إلى أعشاشها، وكأنها تقول رسالات عجولة البوح ثم تعود إلى مخابئها وقشها.

قال ابن الصبرة:

-ضوء ابن الأحمد تأخر يا ابن الحمودة؟؟-

-يكون في أرضه العالية...-

شارك ولد أبي يوسف:

-رأيت يذهب ورأيت زوجته وراءه...-

سأل ابن الصبرة:

- وهل حمل الكيس الأبيض؟

ضاع السؤال، لأن صوت سمر وأختها رباب وأخيها قريميد جاء من جهة بيت يوسف بوحمود، ويانت قاماتهم وهم قادمون ويان معهم سلمان ولد يوسف بوحمود وحسان ولد كريم...

ومن جهة ثانية سمع صوت زوجة كريم وهي تدعو دجاجاتها للبيات: بيتي... بيتي... بيتي... وكانت الدجاجات تسعى من جهات العشب والحفاف باتجاه صوت زوجة كريم، وحببات القمح التي نثرتها إلى جوار الدجاجات...

صوت زوجة ابن الحمودة جاء أقوى وأكثر ضجيجاً، لأنها لم تتاد على دجاجاتها، بل نادت على زوجها، ومن تتادي على زوجها لا بد من أن ترفع صوتها، أكثر من الزوجة المنادية على دجاجاتها، لتقبل على حببات القمح، أو لتأوي إلى بيتها، خوفاً من أذى ابن أوى.

صعدت شياله الدرب المؤدية إلى الحارة (الفوقانية) حيث دكان يوسف بوحمود... شعرت بالتعب من ثقل خوفها وقلقها، ونال من عزميتها حر الهاجرة الشديد، لكنها لم تسترح عند أحد، ولم تنظر إلى أحد، وتابعت سيرها صعوداً، وفي يدها اليمنى حقيبة عادية، وضعت فيها حاجاتها الضرورية...

حين وصلت إلى أعلى الحارة، أحست بالارتياح ممزوجاً بالخاوف... وقد زاد من مخاوفها ومن ارتياحها أن رأت يوسف بوحمود أمام دكانه... وراقها أن ترى إلى جوار الدكان شجرة توت كبيرة...

دكان يوسف غرفتان وفسحة تغطيها الأغصان، وإلى جوار الغرفة الشمالية رفعت ألواح من التوتياء الصدئة، ركزها يوسف على العيدان... وفعل في السقف كما فعل في الجدران... مدّ عيداناً طويلة تصل بين رؤوس العيدان المنصوية وجعل عليها ألواحاً من التوتياء... في الجانب الغربي داخل ألواح التوتياء، جلب يوسف الحجارة ورتبها وطبّنها على شكل مقعد.

في الجهة المقابلة للمقعد الحجري المطين، أحضر يوسف الرفوف الخشبية،

ورتبها فوق بعضها، تاركاً بينها مسافات متفاوتة... وأمام الرفوف رفع لوحين خشبيين متقابلين عطاهما بلوح ثالث، ليشكل حاجزاً بين أغراض الدكان والمشتريين.

هذا هو دكان يوسف، الذي يستقبل فيه المشتريين وعشيقته، التي ملأت حياته باللهفة المحاصرة بالقلق والمخاوف... وكيف لا يكون القلق صديقاً للهفة والحب؟

وصلت شياله، ويوسف واقف أمام باب الدكان... وما أن رآها حتى تهللت ملامحه وانشرحت أساريره فغاب عنها بعض الغيظ... لوت شياله خصرها، فبان كياستها وعجيزتها الرشيقة رشاقة تبعث على الدهشة والاهتمام الزائد، من يوسف عشيقها المعذب بالمخاوف والشقاء...

سوّت وقفها والخوف بعينها نشيد لجوج البوح والحكايات... وهذا ما أسكر يوسف حتى ضاع في ذهول شفيف...

ظلت شياله على وقفها، وظل حسننا المطعون بسكين القلق يحرض نفس يوسف على السرور والبهاء... وأبقت مندبليها الرشيقة على رأسها رغم شعورها بالحر، خوف أن يبين شعرها المجدول، كأنه عرس للريح، شنت جماعاته وتفرقت جماعات...

رفعت شعرها المنسرب على وجهها بكلتا يديها، فبان جمالها: وجه مورد نضر... وعينان ناعستان، تضجان بالبوح والأنوثة، وشعر طويل مسترسل الصفائر، وشفتان شهيتان كصوت نبع منسرب من صخرة عالية، ونهدان نافران أناقتها بادية إلى حد يثير اللهفة... وخصرها واضح رغم امتلاء عجيزتها وسائر جسمها. عاين يوسف شياله ملمحاً، وراح يخاطب نفسه:
"شiale ظلمت بزواجها من واحد جاهل وظلم جمالها".

شiale شاهدت عيني يوسف، وهو يعاينها، وكادت أن تسمعه، وهو يحكي لنفسه: ضاع الجمال وضاعت الكياسة، والعطش أتعب الورد.

قطع يوسف تأملات شياله بصوته الرنان:

-نعم يا شياله ماذا ستقولين؟؟-

لم تجب شياله، وبقي الحسن رسولها... وبقي الصمت يزيدا ألقاً على ألق...

عاد يوسف إلى الكلام:

-في عينيك كلام يا شياله؟؟

-الكلام الذي سأقوله ليس سراً عليك.

-ما هو هذا الكلام!؟

الصمت من جديد هو كل الكلام الذي تقوله شياله ويسمعه يوسف، وكلاهما يفهم الكثير الكثير من كل رفة هذب أو حراك عين، أو ابتسامة أو عضة شفة.

شجرات نبع الساقية تلوح للقدام إلى الحارة، كعلامة تهدي التائهين.
وقد أزعجها صوت ودخان الموتور، الكبير الذي وضعه ابن الحسن على مقربة من النبع.

ابن الصبرة أحس بدخان الموتور، وضججه، وحاول أن يقول رأيه، لكن الندم سد حلقه وعدب صوته.

زوجته لم تجادله بشأن الموتور وسقي أرض ابن الحسن، لأنها عرفت أن غيظاً صعباً استبد به، وهو لا يقدر على دفع الغيظ.

عرفت أنه مغتاض من حال النبع، وخافت من أن تفتح بالكلام، الذي قالتها لها زوجة ابن الصالح... خافت من أن تنور ثورته عليها ومن غضبه.

وجد ابن الصبرة نفسه مأخوذاً بحديث أبي يوسف، الذي يتذكره كلما شعر بالغبن:

انتفع من النبع ما أمكنك، واحرص على أن يبقى نقياً عذباً... ولا تنسى أن توصي الجيران بالحرص...

بقي الضجر يحاصر روح ابن الصبرة، وهو ينظر إلى دخان الموتور القريب من النبع ومن بيته... استبد به شعور عارم بالنقمة على ابن الحسن...

صوت سمر جاء مفاجئاً كظل سحابة أفرح خيال الصيف، وتبعه صوتنا رباب وقرميد.

لم يجد صوت سمر مشقة في الوصول إلى سمع ونفس سلمان ولد يوسف بوحمود، بل وجد السبيل يسيراً... تجاوز السلم الخشبي المتصدع، ودخل الباب... وأخذه من أحلامه...

فرح سلمان لظفر عينيه وروحه بروية سمر، وارتيك لغياب أمه، لإحساسه بأنه سيفشل بالترحيب الجيد، وسيفشل أكثر بالضيافة. وهذا الفشل أمام حبيبته تحديداً يريكه ويتركه مضطرباً، تتجاذب أنفاسه جاذبيتان: جاذبية الدهشة والحب والفرح، وجاذبية الاضطراب والشعور بالفشل في الاحتفاء اللازم بضيوفه.

هبط درجات السلم... وهو لا يعرف كيف يستقبل سمر وأختها رباباً وأخاها قرميذاً، وكيف يصافحها، لكنه ما أن وصل إلى الفسحة التي أمام البيت، حيث وقفوا، حتى بدأ الارتباك يتبدد قليلاً... ووجد أن الأفق مزدان بخفق الأجنحة وأغصان الأشجار...

ابتسم قبل أن يصل... وردت سمر على ابتسامته بابتسامته مثيلة... دخلت النشوة إلى أعماقه، مدّ يده أولاً إلى سمر، صافحها، وسألها عن نفسها وحالها وعن حياتها... ثم انتقل إلى رباب التي لم تبخل عليه بابتسامته لا تنفع محباً أو كارهاً.

ابتسامتها تشبه حالة الزكام القوي الذي تتجلى علاماته عطساً... هكذا ابتسامتها عريضة كحدوة أم يوسف... وأسنانها لا تودعها بقايا الأطعمة... وهذا عهد بين أسنانها وبين الطعام لا تقطعه...

أما قرميد فلم يبتسم، ولم يتكلم واكتفى بأن عرج عرجاً هادئاً باتجاه الجدار، ليجلس على الحافة المنبسطة كابتسامته أخته (عالية الجودة) رباب.

قالت سمر بعد أن استقرت عجيزتها المتناسقة، الممتلئة امتلاءً لا عيب فيه ولا اعوجاج، ولا مهانة... عجيزة تتم عن رصانة واتزان وإتقان، جلست قريباً منها رباب وقد بان اعوجاج عجيزتها وسوء طالعها ونازلها، وكأنها مزيج من حبات البطاطا المفلطحة المهترئة وغير المهترئة.

قالت سمر، وقد توجهت إلى سلمان، ولهفة حنونة تداعب نفسها:

-بيتك عال، وهو في مدخل حارتنا، ويطل على الكروم وعلى الحارة (التحنانية) وعلى حارة الساقية.

رد سلمان ولهفة مثيلة بلهفة سمر، تشغل نفسه:

-وبيتكم جميل، وبطل على الدرب الذي يصل بيوت الحارة العتيقة بمصطبة شجرة التوت وبيت أبي يوسف... ألا تتذكرين المصطبة والبيت وأيام أبي يوسف...
وشجرات التين. التي في أرض كريم كانت تلمنا أغصانها وثمارها... وكنا نرجع بها في (السلة القصبية) ونطعم منها أبا يوسف؟...
-كيف لا أتذكر، وقد جلسنا على المصطبة كثيراً، وسمعنا حكايات أبي يوسف والجيران؟... تابع سلمان حديثه، واستمرت لهفته، واستمر شعوره طافحاً بالشوق والحب وقد أخذ الكلام عن بيت ابن الأحمد، وكأنه بحديثه هذا عن جمال البيت، يؤكد جمال سمر، وحبه لها:

-بيتكم محاط بالأشجار وعال ويشرف على النبع والساقية والشجيرات العالية... وأنا أراك أثناء جلوسك أمام البيت... وأراك حين تصعدين إلى السطح..
-لكنك لا تزورنا... هي يعني هذا أنك لا تذهب إلى بيتنا إلا حين يكون حسان ولد كريم؟؟...
-... ..

لم يجب سلمان... وترك الفرصة واسعة أمام طائر البهجة الذي أحسه يخفق ملء روجه... وأبقى لدمه أن يتدفق لهوفاً عجولاً حاراً مشغولاً بكريات العشق والتشوق.
قرميد الذي بقي على الحافة أحب أن يشارك:
- بيتنا أعلى بيت في الحارة العتيقة، وهو عالٍ... ومثله بيت أهل سلمان، ودكان والد سلمان كان مكانه أجمل، حين كان عند بيت الجبيلي.
رياب تمننت أن تشارك وقد حققت أمنيتها، وليتها لم تفعل، لأن أسلوبها بالحديث شبيه بأسلوبها الأرعن في تناول الطعام...
قالت رياب:

- البيت الخشبي الصغير الذي بناه أبي بين أغصان شجرتنا الكبيرة عالٍ، ويشبه بيت دجاجات أم يوسف...
ضحك سلمان وسمر ومثلهما فعل قرميد، لكن ابتسامة قرميد بريئة براءة تامة من السعادة... سلمان ظل يعاين سمرًا: يقيسها بعينيها، ثم يطرق إطراقاً سريعاً

هرباً من حدة الشوق التي يراها في عيني سمر ولامحها... تزداد حمرة وجهه،
كالمصفوع. ولعل الاشتياق شديد بأسه كالصفع، وقد يكون أشد.

(سمر) لم يفقدها زوجها المهزوم، جمالها... آذاها في عيون الجارات ليس
إلا... نظرات زوجة ابن الحمودة وزوجة كريم وأم سلمان تغيرت تغيراً طفيفاً
تجاهها، مناقضاً لما سبق، وأحياناً يتبعن النظرات المليئة بالأسئلة المزعجة
بكلمات بائسة ومشلولة، ومصابة بالصرع:

رغم هذه النظرات والكلمات المؤذية، بقيت سمر من الجميلات في الحارة
العتيقة... والحارات الأخرى، وقد علمها عيشها، عند أختها (جوهرة) في المدينة،
أن تتفنن في اللباس تفنناً متفوقاً، على تفنن بنات حارات (شجرة التوت)...
وعودتها إلى سلمان ليست تعبيراً عن فشل ذريع أو غير ذريع... إنها وجدت حبها
له باقياً في قلبها كالقنديل المعلق في غصن شجرة التوت، فرجعت إلى القنديل،
ونفخت فيه من أنفاسها فازداد ضياؤه..

في بادئ الأمر ارتفع الخوف جداراً بينها وبين سلمان... ثم انهدم الجدار
بالتدريج...

. الغريبة اختفت يابن الصالح... هل تعرف عن أمرها أي خبر؟...
. هل عشقتها... حتى أعرف عن أمرها الأخبار؟...
- بدأت تتفلسف... يابن الصالح... الإنسان لا يعرف الأخبار إلا إذا
عشق؟...

. العشق يزيد الإنسان معرفة.

. ألم أقل لك: إنك بدأت تتفلسف، ولكنك لست أهلاً للتفلسف.

دار هذا الحديث السريع بين ابن الصالح وزوجته وهما جالسان، تحت
أغصان السنديانيتين القديمتين:

زوجته مشغلة بفرز (الزوان) من القمح، وقد اتخذت من قطعة القماش
السميكة مطرحاً لعجزتها الشقيانة إلى حد المهانة... قلما تستريح زوجة ابن
الصالح من العمل في الأرض أو في البيت... واستراحاتها ليست كالاستراحات...
فهي بدل أن تجلس مثل زوجها، على الكرسي الخشبي المشبوك بالخيطان

البيضاء المتينة بعض الشيء... نفرش القماشة السمكة وتلقي بعجيزتها عليها، وتباشر عملها إما في فرز الزؤان من حبات القمح، وإما بشبك أوراق التبغ في خيطان ناعمة... أو تهتم بشبك ثياب زوجها أو الأولاد.

سألت الزوجة زوجها عن السنديانتين القديمتين.

. كم عمر هاتين السنديانتين... هل تعرف يابن الصالح؟..

. لا أذكرهما إلا هكذا يا ست الحبايب.

. التفلسف زائد عندك اليوم؟...

زوجة ابن الصالح تقدر أن الكلام في شأن الغرام أو الغزل ضرب من التفلسف، أو ضرب من المزاح. وهو غير ضروري في الحياة، بل زائد وكما لي كصباغ الشفاه أو كحل العينين.

وهي أكثر طولاً من جارتها زوجة ابن الصبرة، لكن ضربات الحياة وشقاء الأيام لم يترك طولها على حاله... انحنيت قامتها قبل الأوان، كما أخبرتها قريبتها أم يوسف في أكثر من لقاء: (أنت ظلم جمالك وكياستك... لكن مافي اليد حيلة).

كلمات أم يوسف هذه هدفها فتح باب الحديث، وتراها أحياناً تفتش عن أخبار مدهشة وغريبة لتبدأ بها أي حديث.

بيت ابن الصالح لا يفصله عن بيت ابن الصبرة إلا الدرب الضيق المؤدي إلى بعض بيوت حارة الساقية... والصوت ينتقل من المصطبة إلى المصطبة دون عناء.

سمعت زوجة ابن الصبرة ما قالته زوجة ابن الصالح عن غياب (الغريبة) زوجة ابن الحسن... وتمنت أن تجتاز المسافة الوجيزة إلى بيت ابن الصالح، لكنها لم تفعل، لأنها شاهدت زوج جارتها، فعرفت أنها لن تتحدث مع زوجته كما يحلو لها في حضوره.

ثم إن فتوراً وصل إلى حد الغليان، أصاب علاقة زوجها بابن الصالح، جراء التعاون الملعوم بين ابن الحسن وبينه.

صوت أسعد الآتي من جهة بيت ابن الأحمد قطع ما اتصل من حديث ابن الصالح وزوجته، وأوقف تمنيات زوجة ابن الصبرة... جاء كرسالة حملتها النسائم فبلغت أغصان شجرة التوت... والشجرة الكبيرة التي أمام بيت ابن الصبرة... وأغصان السنديانتين:

(سمر يا أحلى الصبايا... حياتك كلها صارت خبايا، أبوك السيد الفاضل في كل البرايا...).

قال ابن الصالح، وقد أذاع صوت أسعد حالاً من السرور في وجدانه:
. ابن الأحمد في البيت يا ست الحبايب.
. هل شاهدته؟..

. لم أشاهده، لكنني سمعت مديح أسعد له.
. لن يطول على أسعد الدرب، حتى يصل إلينا.
. أسعد يمدح ابن الأحمد، ليأكل عنده... وهو لا يمدحه إلا إذا كان جائعاً...
ويمدح أم يوسف خوفاً من سياط لسانها، التي لا ينجو منها، ثم إنه يؤمل عندها
فنجاناً أو أكثر من الشاي.
عاد صوت أسعد إلى الغناء (المشلع) كباب بيت بقرات ودجاجات ومؤونة
ابن الحمودة:

(سعد الناس اسم سعد)

وسعدي اسمو بوقحيفي

سعدن يمشي لقدام

وسعدي يمشي خليفني).

قال ابن الصالح:

. هذا الغناء حفظه عن قريبه (عبدو الشاعر).

. (عبدو الشاعر) ألا يفكر بالرجوع إلى حب شياله؟...

. البعد يخلق جفوه... وشياله وعبدو فرقتهما الأيام فصار كل واحد منهما في
دنيا... ثم هي الآن . كما سمعت أسعد يقول . تحب يوسف بو حمود.

ربطت الدهشة لسان الزوجة، فلم تقدر على الكلام فعاد الزوج إلى التأكيد:

. شياله ست الحبايب عن حق وحقيقة... وهي تستحق كل خير.

. لماذا لا تقدم لها الخير يا سيد الحبايب؟...

. العين بصيرة والكف قصيرة...

- لست هيناً يا ابن الصالح... ولولا أن الحياة بخلت عليك، لكننا شفنا منك
الأمور العجيبة... (تتكة) أسعد لمحت على كتفه، وهو يدخل إلى بيت ابن الأحمد

عبر الدرب المغطى بالأغصان، و المحاط بشجرات الرمان والزيتون والمشمش...
فعرفت الزوجة وعرف مثلها زوجها أن أسعد بدأ رحلة البحث عن الزيت،
لأن الموسم موسم زيت... سمر صارت تهرب من وجه أسعد، كرهاً منها لأي
خبر عن زوجها وعن زواجها المنصرم انصراماً أكيداً وتاماً.. هو رغم أنه جدير
بابتكار الأخبار والأحاديث، المتعلقة بالزواج والطلاق، صار يتجاهل نقل أي خبر
يتعلق بزواج سمر وهروبها وطلاقها....

قبل أن يبلغ المصطبة المطيئة بعناية، والمغطاة بالأغصان، كوجه صبية،
جدائل شعرها تتدلى على وجنتيها وكتفيها...

قبل بلوغه المصطبة، رفع صوته بقصيدة قديمة، سمعها من أبي يوسف
والجبيلي... وسمعها يقولان إنّ أحمد السعيد والد ابن الأحمد هو علمهما إياها:

(الحمد لله ما أبدى الصباح سفور

حمداً مزيداً على عدد الحصى والرمل).

وجه ابن الأحمد على خلاف دائم مع البشاشة والانشراح. ومن الصعوبة
بمكان، على واحد كأسعد أن يجره إلى السرور، لكنه ضمن أخيراً الترحيب نصف
اللائق: إذ نادى ابن الأحمد على زهوة أن تطعم أسعد وأن تسقيه الشاي. وهذا هو
مطمحه، وغاية غاياته في هكذا لحظة...

قال ابن الأحمد:

. من أين جئت يا أفندي؟...

(أفندي) أعجبت أسعد، وراقت لسمعه، رغم جهله الأكيد بمعناها ودلالاتها،
وابن الأحمد لم يقصد بها التمجيد، بقدر ما أراد بها السخرية من حظ أسعد...

أراد أسعد أن يجيب على السؤال فأحس ببرودة مؤذية تسري في عجزته
الأسبانية أسي كبيراً، نط على الكرسي كالملدوغ... وكاد يسقط أرضاً من كثرة
النط، لولا أن هدأ من نطه ابن الأحمد:

. مسامير الكرسي لامست قفاك يا سيد أسعد.

رش الكثير من اللعاب، وهو يقول كلماته المبعثرة كأحلام حصّادٍ، أنت ربح
هوجاء على حقله وسنابله:

. أنت خير العباد، وبك الرشاد يا سندباد...

ابن الأحمد هم بالضحك، لكن أكادساً من الأحزان والتعاسات وقفت في وجه

ضحكته.

لم ينسَ أسعد السؤال السالف، عن الجهة التي قدم منها:
قرية (النبع)... عطشت يابن الأحمد... قل ماء النبع وانقطع عنها الأسياد
الكرام أمثال أحمد السعيد... وعبدو الشاعر، يفكر بالرحيل إلى بلد بعيد... وبنيت
قريبتك المتزوجة هناك، التي كانت سبباً في أذيتك، من حيث لا تدري، كما قال
لي زوجها... بنت قريبتك سيتزوجها ولد أبي يوسف...

. هل تزور أبا يوسف في بيت ولده؟...

. هو يذهب إلى بيت ولده البكر... ويترك بيت ولده في قرية (التين).

. زوجة ولده الثاني تقسو على الولد وعلى الأب.

. وأم يوسف كيف تسمح لها بذلك؟...

حضرت زهوة وفي يديها طبق القش، يحمل صحنواً، فيها بعض البطاطا
والبنودرة والزيتون... فنسي أسعد أن الحديث الدائر بينه وبين ابن الأحمد كان
دائراً... فانصرف بكل قواه، وما أقلها، إلى الطعام.

غفل أسعد عن قراءة مطلع قصيدة أحمد السعيد التي كتبها يتغزل فيها
بشجرة التوت، وحببيته:

(أيا شجرة أورقت أغصانها قدما

أسميك في أيامنا ليلي

أو أقول: أنت سلمى

من آذى غصناً أخضر اللمحات

من شجراتنا

آذى بنا الحلما

جدع عتيق أصله... من منبت عزت بدايته

من يجرح الجذع الأصيل

بخبثه ويسوئه... هو فاعل جرماً).

انشغال أسعد بالطعام ألهاه. عن كل أمر وكل حديث... حتى لم ينظر إلى
جهة الساقية أو إلى جهة شجرة التوت، التي أحبها، وجلس قريباً من جذعها...
وشرب الشاي تحت أغصانها، وسمع أحاديث الأيام في حضرتها المزدهوة

بالحب، وصدق الطيور... وخفق أجنحتها.

وقد غفر ابن الأحمد لأسعد إقباله المجنون على الصحون، لعلمه الأكيد أنه قطع مسافات، غير قصيرة، دون أكل، ولأن ابن الأحمد كثير الشغف بالطعام، فقال لنفسه:

(الطعام ملذة الملذات... والجوع كافر لا يقتله إلا الطعام...).

درب البازار مكتظ بالمواشي والمارين... والجبيلي منشغل بالخروفين الكبيرين، اللذين اشتراهما من ابن الصبرة... وقد حاول أن يستذكر بعض الأشعار والأدعية، التي تعلمها من أحمد السعيد. خفف الخطو، أملاً منه ببقاء حدائه صالحاً للسير بعض الوقت، حتى يكون بمقدوره إصلاحه أو استبداله. (بنطلونه) أو سترته (الجاكية) العجيبة... و(المعطف) الدائم لم يخف خرابه... لأنه لو حصل الخراب في البنطلون فتحت لبس الجبيلي (بنطلوناً) أو سروالاً صوفياً أو قطنياً، فلا يقدر الخراب أن يخترق كل الثياب المتراكمة فوق بعضها... و(الجاكية) كحال (البنطلون) مدعمة بألبسة أخرى تكفي لعدة أشخاص... ويعاونها في حماية (الجبيلي) من عوامل الطبيعة وغيرها، (المعطف) القديم، الذي أحضره معه منذ وقت غير قريب... وهو يسهب في الحديث عنه إسهاباً واسعاً، كما يسهب في الحديث عن أيام أحمد السعيد... وعن ملكات (سبهه) في إعمار التنور وتطيينه، وهندسته...

و لا ينسى أن يشرح مطولاً عن فضائل (يوسف بو حمود) صاحب الدكان الذي جاوزه سنوات عديدة... وكذا أمره مع الجرة الفخارية الكبيرة وغطائها الخاص بها.

(الجبيلي) يحب أن يمجّد الحاجات التي تخصه، ولا يعنيه كثيراً أنها حاجات ذات نفع، أو ليست نافعة.

اجتهدت خطواته، من حيث لا يريد... وهل تقدر خطواته أن تكون غير مجتهدة، وقد درّبتها الدروب الوعرة والأحفة الصعبة، والتلال... ودرّبها، أيضاً، سعيه وراء طيور المواسم... (عيدان الدبق) التي يصنعها بعناية خاصة، ومهارة ليس كمثّلها مهارة ابن الأحمد ولا مهارة ابن الصالح...

ازداد خريان حذائه، الذي أفاض في الحديث عن متانته وجودته وحسن مقاومته للحفر والأحجار.. وهو قد يكون محقاً بعض الحق، في حديثه عن متانة الحذاء، وما هين على حذاء أن يعيش في قدمين دروبهما تعب ومشقة... وخطو صاحبه خطو عنيف لا استقرار فيه...

وصل البازار... وزحام المواشي... والمقبلين على البازار إما لبيع خرافهم أو بقراتهم وإما للشراء.

الزحام في ذروته... فضاعت عليه اللحظات، فأراد الذهاب إلى بيت ولد أبي يوسف القريب أملاً منه أن يجد صديقه وجاره... فيهنأ به الحال بعض الهناء ويحدثه عن شؤون الطير والرعي.

شعرت أم يوسف بالضجر، إذ وجدت (حدوتها) في غير مكانها... وقررت على الفور، أن تجد تدبيراً أكيداً، لحماية الحدوة واحترامها... ففكرت بأن تربطها في قائمة السرير، المخصص لها ولأبي يوسف.

في هذا الوقت العصيب، وصل الجبيلي... وقد نادى من بعيد:

. يا صاحب الشجرة العتيقة... يا جار الرضى... يا صديق العمر..

سمعت أم يوسف النداءات لكن انشغالها بـ(حدوتها) ألهاها عن الرد على النداء، أو عن تنبيه زوجها، وإيقاظه...

عادت النداءات:

. يا أبا يوسف... يا فالح الأرض وزارعها.

يامن رعى العهود وقاوم البرد والمطر والرعود.

يا صاحب المصطبة المحاطة بالأغصان...

و(جرن القمح) المصان... أنت عليك الأمان.

هذه الكلمات لعل الجبيلي حفظها... وقد رفع صوته وهو يقولها، فصدع الفعل وكسر الفاعل ورمى المفعول به أرضاً... وهذا لا يهمه ولا يعنيه.

مايهمه في نداءاته وكلامه المشروح وغير المشروح أن يسمع صوت أبي يوسف أو زوجته... أي أن يتأكد من وجوده...

أيقظت أم يوسف زوجها... وقد يكون أدركه الصحو، إذ جاءه الصوت العالي والنداءات، فعرف أن الجبيلي صار قريباً من البيت البئيس... التعيس كآمال أسعد، أو ك(عيدان الدبق) التي يعدها ابن الصالح.

همة أبي يوسف، رغم السنين .ليست من الضعف بمكان، إذ يشده النداء شداً، فينهض لا يعوزه الاتكاء على السرير، أو على (عكاز)، حتى إنه لا يقبل على عكاز، لأنه يعتبر مصاحبة العكاز عنواناً للضعف، وعلامة على تهاوي نجم الحياة...

كرسيان أو ثلاثة... ومقعد خشبي شاخت قواه، قبل أن تكون فتية. أنجز المقعد ولد أبي يوسف، فجاء مهزولاً، ركيك الحال، كغزله وغرامه.. أربع قوائم وصلت بأربع خشبات... ركزت بالمسامير... ثم مدت عيدان وخشبات أخرى... فكان المقعد... وقد أسهمت أم يوسف في إكمال هندام المقعد... جمعت ما وقعت عليه يدها أو عينها، من خرق ومزق قماشية أو غير قماشية.

أبو يوسف لا يصحو وحيداً... تسبقه شجرة التوت: تتراءى له على حالها... أغصانها في خضرة عامرة وجذعها راسخ في تراب المصطبة... وفي فضائها الطائر الكبير... وأجنحة لا ينقطع خفقها، وكأنها تلاعب النسائم...

ثياب أبي يوسف، رغم بؤسها، تبين عليها علامات الأناقة... سروال أبيض واسع، وعباءة تظهر عليها ابتكارات وإبداعات أم يوسف، في شبك أطرافها أو وسطها... خيوط سوداء تختلط بخيوط بيضاء أو بنية أو غير ذلك... المهم عند أم يوسف في أمر (الشبك) أن تجد خيطاً أي خيط، أكان ملئماً أو غير ملئم لتستخدمه في ريق ما انخرق من ثياب زوجها...

وقد يتيسر لها أحياناً خيط عريض، لا يصلح للثياب، إذ هو أساساً لخيط الأكياس... فتستفيد منه في (شبك) العباءة، أو السروال...

وصل أخيراً (الجبيلي) الصانع الماهر لعيدان الدبق، والراعي المميز للخراف والبقرات... والعارف بشأن الطير معرفة واسعة... وكيف لا يكون واسع المعرفة بشأن الطير... وقد تربي على يد أحمد السعيد... واستفاد من علمه ومن علاقته بالحياة والطير...

ربط الخروفين في النافذة الوحيدة للبيت... ولم ينس أن يجمع لهما بعض الحشائش... والمفارقة المريرة قليلاً. أن الخروفين المدللين. مداهما يشمل (حدوة) أم يوسف، التي فكرت بربطها، ولم تكمل فكرتها بعد.

دخل الجبيلي، فرحب به أبو يوسف ترحيباً طيباً، دون مظاهر الترحيب والاحتفاء... إذ لا موقوفات في بيت ولد أبي يوسف للترحيب والاحتفاء وقد بادر الجبيلي على عجل إلى الجلوس على المقعد الخشبي (الموقر) فألقى بعجزته

الأفقية... ولم تعبأ العجيزة المترامية، برؤوس المسامير، لأن ما يلبسه من ثياب يحتاج إلى مسمار طويل، حتى يصل إلى ما تيسر من لحمه أو عظمه.

تنهد أولاً... ثم ألقى نظرة غير باردة على البيت فالقى البؤس في كل ملمح... لكنه لم يدهش، لأن هذا الواقع ليس غريباً عليه، ثم وجه نظراته... إلى عينيه وحاجبيه الأبيضين.

أم يوسف زمت شفقتها زمناً محكماً، كمن يبحث عن قبلة مفقودة، قبل ولادتها... وقد رحبت بالجبيلي، وسألته عن أخته:
. كيف الأخت؟..

. منشغلة بتتور زوجة ابن الأحمد...

. سبهة تعرف شغلها... ولا تحتاج لأحد يديرها...

اطمأن الجبيلي، إذ لاقى الرضى عند أم يوسف تجاهه، ولم يلاقِ النفور... وقد أشعره ترحيبها بحال من النشوة... وقد أخبر بفرحته هذه صديقه وجاره:
. أم يوسف مرتاحة لحضور فخامتي...

قال كلماته هذه، بعد أن تركت أم يوسف الغرفة، باتجاه المطبخ المشربب بعنقه كطائر نعام... فستانها لا يصل إلى الأرض، ولو فعل لكنس الكثير من الغبار والحاجات التي لا نفع منها ولا ضرر...
قال الجبيلي لأبي يوسف:

- هل سمعت مثلي أن ابن الحسن تعاون مع ابن الصبرة... وبدأ يسقي الأرض من النبع...

. كيف يصعد ماء النبع إلى الأرض؟

- الموتور الذي أحضره ابن الحسن هو الذي يقوم برفع الماء إلى أعلى الأرض.

. وابن الصالح هل يسمح لأحد بأخذ الماء وتخریب النبع؟..

سمعت ابن الأحمد، وهو يقول ليوسف بو حمود:

- حصلت خصومة كبيرة بين ابن الصالح وابن الصبرة... وتضاربا بالعصي... وتبادلا الشتائم الصعبة...

. ابن الحسن لم يتعلم إلا الأذية..

. وولدكم لماذا يبقى في خدمته هو وزوجته؟
تنهد أبو يوسف تتهيدة طويلة... ولم يتبعها بأي كلام، لأن أم يوسف عادت
بالإبريق والفناجين... وهذا ما ألهى الجبيلي أيضاً عن الكلام.
لاحت لعيني أم يوسف (حدوتها) وهي تعاني من (دوس) الخروفين...
فاستاءت واغتازت ونادت على الجبيلي، وهو منها قريب:
. كيف تسمح لنفسك بربط الخروفين قرب (الحدوة)؟؟..
نط الجبيلي نطاً محكماً... وجمع كل نفسه واتجه لا يلوي على أمر، إلى
حيث (الحدوة) والشباك الذي ربط فيه الخروفين...
أبو يوسف ضحك ضحكته المعهودة، الناعمة... المطمئنة في أكثر
الأحيان... ومال إلى زوجته وهذا من روعها وطلب منها برفق وتؤده، أن تصفح
عن الجبيلي الذي قام بنقل الحدوة إلى مكان أبعد.
ساعد في الصفح والغفران أن صوتاً أو أكثر اقترب... فقدّرت أم يوسف أن
القادمين إما خطيبة ولدها أو الخطيبة وأهلها.
والد حبيبة ولد أبي يوسف التي جمعتها المصادفة...والدها قريب أسعد
والجبيلي.
وأما قريبة ابن الأحمد... بل هي أخته من أبيه، لأن أمها هجرت قرية
شجرة التوت، بعد أن غاب (أحمد السعيد) وضافت بها الدروب وسبل الحياة،
على حد تعبيرها.... وحسب تقديرات زوجها، المغلوب على أمره من قبل الدنيا
ومن قبل زوجته، ومن قبل قريبته (قرية النبع العالي).
شاءت المصادفة الطيبة أن يجتمع الأقرباء بعد طول تفرق وشتات... قال
والد الحبيبة وقد رأى قريبه الجبيلي:
. ألسنّ الجبيلي، الذي ترك القرية منذ أربعين عاماً تقريباً؟؟..
. نعم يابن (العامودي).
قال الأول كلماته بشوق... وكذا أجابه الجبيلي... وقد أكدّ مودته تجاهه إذ
ذكر اسم أبيه الراحل عن الدنيا منذ عهد قريب.
زوجته لم يرق لها أن زوجها أعلن المودة تجاه الجبيلي، وهي التي تعرف أنه
بائس الحال وقليل المال، وهي التي تعرف أنه اشتغل عند أبيها، في الأرض
العالية، التي أخذها ابن الحسن... حبيبة الولد، لم تقل أي كلام ودود أو كاره...

واكتفت بإلقاء تحية عوراء كعينيها، اللتين لا ينقطع غمزهما، حتى يظن الجاهل بأمر الغمز والعيون بأنها تغمزه حباً وهياماً. أم يوسف ازداد زمها لشفتيها، وازداد عبوسها على عكس زوجها المشرقة نفسه... نسيم غير عليل يلعب بصوف خروفي الجبيلي... و(الحدوة) على بعد... أمانة... وشجرات لاهوية لها، تفصل أرض ولد أبي يوسف عن أرض أهل الحبيبة... البازار البعيد قليلاً لا تهدأ ضجته: المزيج من أصوات الآتين من القرى القريبة... وأصوات (الدواب) المستاءة من بقائها في هذا الصخب والضجيج...

(الدواب) تسمية يطلقها الجبيلي ومثله يطلقها ابن الصبرة وابن الصالح وأبو يوسف على جميع الحيوانات... ولعل هذه التسمية ليست وفقاً على قرية دون أخرى.

نسي في زحمة الحديث والأخذ والرد والذكريات البائد عهداً... نسي الجبيلي شأن الخروفين والبازار... وأخذ بالكلام حتى أشرقت في نفسه بوارق أمل، كان أغمدها عمره المرهق الشقيان، المزدحم بالمتاعب والخيبات...

والدة الحبيبة تشبه أم يوسف إلى حد بعيد: فمها معروف بالزم... وشفاتها كأنهما هاربتان من قبلة نارية... أو قبلة هي بمثابة (العضة)... وملاحها إرثها من العبوس، أكثر من إرث (حدوة) أم يوسف من العناية.

ثوبها متماسك، رغم بعض الرقع المشغولة بشيء من الدراية... وشعرها ليس مسترسلاً ولا طويلاً كشعر (شباله) لكنه خير من شعر أم يوسف جمالاً وحسن تسريح. وهي تلبس منديلاً كأه أم يوسف... و(حدوتها) كاد الهلاك يأتي عليها، حالها كحال حذاء (الجبيلي).

استمرت أم يوسف في تقديم الشاي لضيوفها، وقد عاونها في إنجاز أمر الشاي صباً وتوزيعاً (الجبيلي) فأراحها من نقل الفناجين الكبيرة، التي حملتها معها من البيت الترايبي الذي هجرته وزوجها مرغمين.

(الفناجين) المزخرفة هي مدار اهتمام أم يوسف بعد (الحدوة) مباشرة، إذ تسهب في الحديث عن ندرة نوعها، وعن متانتها، وعن قدمها... وعن منشئها... وكيف اشترتها...

حكايات وأحاديث لا تتعب أم يوسف من إعادتها عن (الفناجين).

أبو يوسف عرف أن زوجته ستباشر الحديث عن الفناجين ومزايها النادرة، فعاجل إلى الحديث عن ابن الأحمد وعن دجاجات شجرة التوت... التي رآها ليلاً

أثناء نومه، ورأى (ابن أوى) يداهما، ليقتلها... لكن صوت ابن الأحمد فاجأه فأفزعته... ودفع به للهرب والسقوط في فخ كبير كان جعله قرب شجرات المشمس.

قال أبو يوسف:

. اليوم سأرافقك يا جبيلي إلى القرية.

عرف الجبيلي أن حالة شوق لهوف، تعيش في نفس صاحبه العتيق. تأخر ولد أبي يوسف، على غير عادته وهذا ما أقلق الحبيبة، التي لا تتوقف عنها عن الغمز، كداخل في مسابقة الغمز وعليه المران الكثير حتى يكون له الفوز.

ولعل جهل أبي يوسف و الجبيلي بالغمز، جعلهما لم يتوقفا قليلاً عند عينيها (المزيونتين بالعمور) والمكحولتين كقدر مرّ على قفاه لهيب النار مرّاً عجولاً، فأبقى من لهيبه اسوداداً، إن لامسته الأيدي اسودت أناملها.

وكذا أمر حبيبة ولد أبي يوسف، كحل عينيها، قد تكون استعارته من قفا قدر، أو من أي قفا آخر. أم يوسف كالمصابة بالحمى... أو كالمخدوغة، لا تستطيع الهدوء في حضرة أم الحبيبة... وهذا مرده إلى تشابهه في طبيعتهما... وطفولة مشتركة... فكل منهما أعند من الأخرى.. وكل منهما نفسها حامضة وصعبة... وهذا التعبير أطلقته أم يوسف على أم الحبيبة غير مرة... أبو يوسف لم يعنه من أمر زوجته، وزوجة ولد (العامودي) إلا أن تظل الريح بينهما هادئة... وقد أقلقه حقاً أن تعصف الريح بينهما، لأنها إن عصفت، فلا بد أن تمطر أم يوسف أم الحبيبة بوابل من الشتائم المشهود لها بها... بل هي صاحبها... وبراءة الاختراع عائدة لها...

والد الحبيبة... نظر إلى زوجته فألفاها غاضبة الملامح، وهذا هو حالها ولهذا لم يطل إليها النظر... واجتهد بالالتفات إلى الجبيلي وإلى أبي يوسف الذي شغل خياله شجرة التوت والبيت... والحارة العتيقة.

وصوت الجبيلي الذي كسر حاجز الصمت عزز خيال أبي يوسف وزاده قريباً من الشجرة والبيت:

"صاح ابن شعبان:

ريدوني لكم غني.

بطل غناكم وهرجكم عني".
سأل والد الحبيبة:
. هل شاهدت عبدو الشاعر، بعد عودته من السفر يا جبيلي؟؟
. لا لم أشاهده...
. هذه الأغنية أسمعها يغنيها..
. عبدو الشاعر... يحفظ الكثير.... الكثير.
قال أبو يوسف:
. شاهدته منذ وقت عند أخته في الحارة العتيقة...
أم يوسف أدركها شوق لهوف إلى الحارة والدجاجات:
. هل تكون زوجة كريم احتفظت لي بالفراخ؟؟؟

حاول زوج سمر التعيس... الخسيس، حسب تصريحات أسعد... والأيام...
حاول إعادة سمر إليه، فلم يوفق.
سلمان ولد بو حمود قلق لأمر سمر... وزارها ظهراً، بعد أن تأكد من وجود
والدها في أرض الساقية... ولم يدخل من الباب الخشبي، بل جاء من كرم ابن
الصالح ثم تجاوز السور...
رباب حملت (الصرة) المزودة بالغداء... وأمها قصدت زوجة ابن الحمودة،
سمر ازداد ألقها... وازدادت أناقة... واجتهدت في متابعة القراءة... واستفادت من
زواجها أنها صارت تعرف من تحب، ومن تكره...
وجوهرة علمتها كيف تكون الفتاة أكثر ملاحظة في عيني عشيقها أو غيره...
وصل سلمان وشوقه كسيف من ضياء، شحذته اللهفة والصبابات الملتاعة
التياغاً وجيعاً... قميصه المزرکش ملائم... وينطلونه أيضاً... وحذاءه الجديد
بعض الجدة... وشعره المسرّح، كل ملمح من ملامحه يقول: إن هذا السلطان،
عاشق حتى آخر أنفاسه... وحتى أعرق أنفاسه... وحتى أعرق أعماقه. أحست
سمر، وهي تلمح سلمان، يعبر السور مليحاً... شجاعاً... تسعى به أشواقه...

وتطوف بروحه أحلام عاشقة... أحست وهي تراه، أن غيماً حنون المحيا.. بدأ
يمطر كرملاً عطشت أشجاره، حتى صار اليباس قريباً... بللت روحها... وامتلأت
أذناها بنشيد صاحب شجرة التوت.

الهجرة لم تؤذِ آمال العاشقين... وأنفاسهما المبللة بمطر الشوق...
والمصطبة المغطاة بالأغصان مرتع طيب لصوت العشق الخائف والمطعون،
بقدرته الحياة البائسة وظروف العيش. صافحها وارتعاش الحب يسري في كل
شرايينه وأوردته... وقد أشعره الارتعاش، بأنه ضعيف لا يستطيع النطق
والفصاحة... كل الشجاعة التي أحسها وهو يصعد الحفاف ويتجاوز السور،
تحولت إلى ارتعاش وخوف... وهذا هو قدر العاشق: حلمه شجاع لكنه في حضرة
الحب... يدركه الخوف...

سمر لم تجد في نفسها رغبة الكلام... ولا قوة الإفصاح عن شوقها...
الإفصاح عن الشوق شجاعة الشجاعات... هو كصدح الطائر الكبير الذي بحث
عنه أحمد السعيد... والذي عاش غير بعيد عن شجرة أبي يوسف (شجرة التوت
البرية).

ثوب سمر، رغم أنه قديم بانث أناقته... وبانت كياستها وهي ترتديه...
عيناها اللتان ضوأت نظراتهما الفرحة والهناءة اليسيرة صارتا مبعث شغف...
شعرها المتروك من غير تسريح... ليس فوضوياً إلى حد البشاعة بل هو مسترسل
استرسالاً كافياً، لتحريض لهفة المحب... الذي لا يرى إلا الحسن والكياسة في
حبيبته... استدارة وجهها ونضارته... وشفاتها اللتان لم تبتسما، أسرتا لروح سلمان
بالابتسام فصار يراها كصورة فجر على مدخل ليل طويل....

أحلام وأحلام شغلته طوال الليل:

هل تكون سمر وحيدة... وهل أقول لها إنك حبيبتي... وسأحميك؟ وهل
أسألها عن أمر زواجها ومحاولات زوجها السابق أن يرجع إليها أو ترجع إليه؟؟

وهل تفكر بالذهاب إلى حيث أختها جوهرة؟؟

هل تقبل بالسكن معي، في بيت أهلي؟؟

وهل قادر هو على إكمال ما ينقصها لتبقى جميلة؟..

وأحلام أخرى ضاعت في زحمة ارتعاش العاشق...

وأحلام فريت هاربة... وهو يعبر الدرب... ويصعد ويعاين. لمحا زوجة ابن
الحمودة وزوجة ابن الأحمد ونبع الساقية...

أحلامه أحس أنها صارت عارية أمام الجميع... وصار خائفاً من ملاحظة أي جار بعيد أو قريب...

سمر ليست أقل منه شوقاً وأحلاماً، لكنها أقل منه خوفاً، إذ أشبعته الأيام شعوراً بأن الأحلام الجميلة مفضوحة وعارية... وكيف لا... وهي التي ذقت ويل العيش في كنف والد بئيس الروح.. جرّته الحياة الخيبة تلو الخيبة... فصارت روحه ملاذاً للخيبات ليس إلا.. وغير هذا فقد فجع حلم أحلامها يوم تزوجت... وفشل زواجها... وصار أمر زواجها كحكاية تتسلى بها الجارات... ومساءات وعشيات قرية شجرة التوت.

خفف عنها وطأة الفشل الفظيع، أنها يوم هربت كان أبو يوسف في بيته وقد التجأت إلى ضوءه هرباً من ليل تعاستها الداكن.. صور وأحداث... ظلت تراود خاطرها، وتشغل بالها... وهي تجلس قريبة من سلمان... تنظر إليه... وينظر إليها فتبتسم روحه وروحها... ابتسامة الأمل المملوم بالمخاوف.

شبح موحش... والأشباح قليلاً تجيء مؤنسة... صوت ابن الأحمد... ظل رعاداً، يذيع الهلع، في نفس سمر... وإن هو لم يناد.. شبحة لم يغيب... رغم أنه يبين لعينيها، وهو في الأرض القريبة من الساقية، شبحة يخيفها ويبعث على شعورها باليأس... لأنها لم تعرفه يوماً هادئ الطبع... لين المعاملة...

سلمان أفاق في نفسه صورة غضب ابن الأحمد، فارتدت ابتسامة روحه هاجساً قلقاً، محاصراً بصوت الرعب... ونداءات الفشل...

زوجة ابن الحمودة وزوجة ابن الأحمد، قصدتا نبع الساقية، لملء جرتيهما ماء... الشجرات واضحة لعيني سلمان وعيني سمر. ودخان (الموتور) يصعد من جهة الساقية... يلوث هدأة بال حارة الساقية وطمانينة المقبلين على النبع.

قائمة زهوة أطول من قائمة زوجة ابن الحمودة... وحق لها أن تكون قائمتها أطول، لتوازي قائمة ابن الأحمد... وحق لزوجة ابن الحمودة أن تكون قائمتها أقصر، لأن قائمة زوجها ليست طويلة... فكتب عليهما قصر القائمة...

لكن قصر قائمة زوجة ابن الحمودة لم يؤذ طبعها... ولم يسيئ لمزاجها؛ فهي سوية المزاج... لا تتسع روحها للكراهة أو الأحقاد... بل تضمر . دائماً . المودة والحب تجاه جاراتها... حتى إنها عبر سنوات حياتها في قرية شجرة التوت، لم تحمل على جارة... ولم تختصم معها خصومة طويلة الأمد.. خصوماتها هادئة... وتأتي سريعاً... وتذهب سريعاً... قد تختلف مع زوجة كريم أو زوجة بو

حمود من أجل الدجاجات، ثم لا تلبث أن ترجع المياه إلى المجاري... وكذا كان أمرها مع أم يوسف، التي لم تنسها من الشتائم، في عشيات كثيرة، وجدت فيها بعض دجاجاتها أو بعض الأفراخ غائباً... كانت زوجة ابن الحمودة، تتأى ما أمكنها عن الشتائم، تغلق أذنيها، لعلمها الأكيد أن أم يوسف لا تشتم أحداً كرهاً... بل شتائمها تأتي تنفيساً عن حالة غيظ لا تحتملها، حين يصيب الأذى أية دجاجة من دجاجاتها أو أي فرخ من أفراخها.. هي ارتضت لنفسها طواعية، أن تمشي وراء زهوة، لأنها تراها أجمل منها، ولأنها ترتاح لمعاشرتها... وتسعد نفسها لتبادل الأحاديث المتعلقة بالبيوت والجيران معها.

قالت سمر وهي تعاین أمها تسعى باتجاه الساقية ومن خلفها زوجة ابن الحمودة قالت:

. أساء ابن الحسن لكل قريتنا...

. زوجته الجديدة... هي التي قالت له: اسق الأشجار.

. سمعت أُمي تتساءل أين ذهبت زوجة ابن الحسن (الغريبة)؟...

. حسان ولد كريم يعرف من أين هي زوجة ابن الحسن... وسمع أحاديث عن حياتها وعن أهلها، وعن زواجها...

. حسان متى يعود؟؟

. عاد منذ البارحة، واليوم سيزورهم أبو يوسف...

. هو أخبرك بذلك؟؟

. أُمي أخبرت أسعد.

. أين هو أسعد؟؟

. انظري إلى حارة الساقية ألا ترينه يتجه إلى بيت ابن الصبرة... وعلى كتفه

(التنكة) المخصصة للزيت.

نظرت سمر إلى حيث أشار سلمان، فبان أسعد وهو يسرح في جهات حارة

الساقية... وبعد هنيهة ارتفع صوته بأغنية عتيقة:

"يا طير الطاير فوق البراري.

خبّر الحلوي واحملا خباري".

قالت سمر:

. أسعد يحفظ الأغاني ويغنيها ليسلي سمعه، ويقتل ضجره وخوفه...

- أبو يوسف كان يحبه... كثيراً رأيته تحت أغصان شجرة التوت، وهو أول من أخبر أبا يوسف بزواجك في قرية (النبع العالي).
أخذت الهواجس مأخذها في رأس سمر، فذهلت عن سلمان، كمن أصابه دوار مفاجئ:

"تذكرت أيامها السوداء عند زوجها... وتذكرت القرية ونبعها العالي، وبيت أسعد المغلق أكثر الوقت... وتذكرت كيف صادفته، قرب النبع، وهو يحمل جرة فخارية مملأها ماء... كادت تسمع كلماته المضطربة:
. كيف أنت مع التعيس ولد التعيس؟..

... ..

. هل تحتاجين مني شيئاً... أنا أخدم كل من عاش في قرية شجرة التوت أو عرفها أو زارها...

تذكرت درب النبع المحفوف بالأغاني... والنداءات العالية؛ التي ترتد على أصحابها بالصدى، ليس إلا..."

أراد سلمان أن يرجع سمرأ من ذهولها:

. هل رأيت أسعد صعد إلى المصطبة؟؟

. ابن الصبرة ليس في البيت...

. من قال لك: إنه ليس في البيت؟

. سمعت أبي يقول لأمي: ابن الصبرة باع أكياس القمح...

. لمن باعها؟؟

. لصديقه الذي في المدينة.

. يكون حمل الأكياس على جرار ابن الصالح الذي اشتراه منذ وقت؟؟...

. ابن الصالح وابن الصبرة متخاصمان من يوم (موتور) ابن الحسن.

- وأخو ابن الصالح، هو الذي يقود الجرار... وهو يقوده كما يقود الحمارة

الكبيرة التي اشتراها من (الجبيلي) ولهذا لا يجرو على دخول المدينة بالجرار...

عادت زهوة وزوجة ابن الحمودة فازداد فرع سمر... وازداد حذرهما... لكنها لم

تصرح لسلمان بما يدور في بالها... واكتفت بأن نبهته إلى عودة أمها وزوجة ابن الحمودة:

. رجعت أُمي .

. قالت كلمتيها ولم تذكر زوجة ابن الحمودة.

ففهم سلمان مقصدها؛ وأخبرها بأنه فهم... وكيف لا يفهم ما أردت، وهو الذي يحبها قبل الجميع... ويعد الجميع وأكثر من الجميع.

قال لها وقد همَّ بالنهوض عن الكرسي الخشبي الذي لامست مساميره فقاه ملامسة جادة، أكثر من الأدب الجاد...

الهجرة بدأ حرها تخف شدته، أمام النسيم الذي داعب أغصان شجرات ابن الأحمد... سمر وقفت، ورجاءات طيبة تحاور نفسها، وتقف في مواجهة خيالاتها المرتجفة خوفاً، كأغصان الشجرات المرتجفة جراء مداعبة النسيم...

رجاءات سمر أهمها وأكثرها حضوراً وإلحاحاً أن تمر أمها على أي بيت من بيوت الجيران ليبقى الوقت مباحاً لوقفها الشغوفة مع سلمان... ورجاء آخر أن يتأخر والدها في أرض الساقية ليطول بها وقت الطمأنينة.. ورجاء شغل عليها نفسها وهو أن يجيء أبو يوسف إلى القرية... وأن يعيد ما انهدم من جدران بيته، وأن تعود المصطبة والشجرة إلى سابق أيامهما.

طائر جناحاه حزن وشوق. خوف من صوت ابن الأحمد وقدم زهوة ورغبة في البقاء. الطائر بقي يحوم قريباً من سمر وسلمان... ويزداد خفق جناحيه، كلما اقتربت زهوة من تخوم الحارة القديمة وكلما علا صوت ابن الأحمد أو مهمماته عالية التوتر... كل شيء في حياته توتره عال... عدا حبه لأولاده توتره منخفض انخفاضاً بعيداً... وحبه للطير . أيضاً . معادلته الكبرى الذبح والأذية... فهو لا تصل يده إلى جناحي طائر إلا أتت عليه أسنانه عضاً بشعاً...

تابعت زهوة سيرها شرقاً عبر درب الحارة العتيقة... وزوجة ابن الحمودة انعطفت غرباً... جرن القمح، على حاله لم ينقل من مكانه المجاور للمصطبة وجذع (التونة)...

راق لزهوة أن تنزل الجرة عن كتفها إلى جوار الجرن... وتستريح، وهواجسها الطيبة قريباً من الجذع وذكريات المصطبة والبيت المهجور...

هواجس زهوة، منذ وقت غير قريب طوت صفحة الغرام، وأغلقت آخر نافذة كانت مفتوحة على الشوق والغزل... وصارت تحس بالعداء تجاه أية نسمة، فيها غرام... وهي غريبة عن نسائم الحب والغرام، منذ دخلت دنيا ابن الأحمد المسيجة بالقسوة والجفوة والصوت العالي... دنياه كثيرة الشبه ببستانه المسيح بالعيدان

والأشواك اليابسة... وفيها من التعاسات، ما يقتل أي حب وأية حالة غرامية،
مهما اجتهدت وشقت... ورقت حواشيتها...

وكذا أمر زهوة في حياتها عند ابن الأحمد، الذي لم يبادلها الهوى أو
الغزل... فقط أخبرها بأنه رغب أن ينالها بـ(قرصة) محترمة، تليق بجسدها
الممتلئ... وأنوثتها الواضحة، هكذا بدأ الغرام بينهما... وهكذا استمر...

استراحت إلى جوار الجرن والجذع وقتاً قصيراً، وقد اختصرت استراحتها،
مرغمة لا راغبة لأن صوت ابن الأحمد باغت هناعتها، وذبحها كذبحة لأي طائر
تصل إليه يده:

- يا زهوة يابنت حمدان... اللعنة على كتفيه ألم تذهبي إلى البيت.. وبنتك
متلك مشغولة...

لم تفهم زهوة ما قاله زوجها. واكتفت بأن حملت الجرة من جديد، وسعت
مسرعة ما أمكنها السعي والإسراع باتجاه البيت... بيت ابن الحمودة والبيوت
المجاورة له، لم تستوقفها... وكيف تستوقفها البيوت، وصوت زوجها يهيب بها
ويخيفها، ويذيع في روحها صخباً قاسياً كشوك السور اليابس والمؤذي.

ابن الأحمد لمح سلمان وهو يتجاوز السور... وقدّر أنه قصد المصطبة،
ليحكي لسمر عن حبه لها...

آذاه أن ترجع سمر إلى حب سلمان، وهي التي تزوجت وفشل زواجها،
وفشلت حياتها... وخلقت له اضطراباً أضيف إلى رصيده الكبير من
الاضطرابات.

ابن الأحمد لا يكره يوسف بو حمود، ولا ولده سلمان... ولا هو يحبهما
أيضاً... هو لا يميز كثيراً بين الحب والكره... أيامه صفعته صفعاً، أفقده توازنه
وأجمل الأحلام... ولا يمكن لواحد مثله عذبه الدنيا، وقتلت روحه... لا يمكن
لأمثاله أن يفكروا بالحب... ولا يمكنهم أن يبزرروا لعاشق لهفته وشوقه...

تاهمت أفكار ابن الأحمد... وغطت روحه غيمة سوداء لا مطر فيها ولا

نبوءات رياح... واستبد بأنفاسه ضيق، الفلات منه أصعب من فلات الطائر المخدوع، من دبق (الجبيلي).. النبع ليس بعيداً عن أرض ابن الأحمد، والدرب المؤدي إليه منحدر تحيط به التخوم والأشجار... كل تخم يشكل حداً معلوماً... لكرم من كروم حارة الساقية... التخم الأول يفصل بين أرض ابن الأحمد والأرض التي أخذها ابن الحسن، وهذا التخم تميّزه شجرة البلوط ويميزه (توت سياج)، الكثيف، الذي يسقط فيه قرميد ورياب بين الحين والحين... وسقوطهما لا يأتي مصادفةً، أو سهواً... يسقطان إفرادياً أو معاً، حين يقبلان على ثمار (توت السياج) الناضجة، الملونة بألوان تبعث على الإشتهاء، وتحض الأكل على متابعتها... وحينذاك... لا بد من السقوط في حومة الأغصان المتشابكة تشابكاً عجيباً، كتشابك شعر (رياب) المتروك من غير تسريح...

عاد قرميد ومعه الجرة الصغيرة مملوءة ماء من نبع الساقية... فاستوقفته ألوان الثمار الناضجة فأقبل عليها بهمة عرجاء... عوجاء... وقف على الحافة... وأمامه الأغصان المتشابكة والشائكة... قدم على التراب وأخرى دفع بها إلى الأمام ظناً منه أن الأغصان تستريح على التراب أيضاً... فأخطأ الظن، وهوى وسط الأغصان... والشوك بدأ يداعب جلده ووجهه مداعبة شائكة... فصرخ صرخة عالية... فبلغت سمع والده المغضب دائماً... وسمع رياب المنشغلة باقتلاع الأعشاب.. وقد أدركتها الهمة حالاً... وأسرعت إلى حيث سقط أخوها قرميد سقطه لاهوادة فيها...

هبطت الحافة... ووصلت إلى التخم وشجرة البلوط... قبل أن يتخذ والدها أي تدبير بشأن ولده الساقط في حومة أغصان شجرة (توت السياج).

والحظ العاثر، لا يمكن أن يصير غير عاثر بسهولة... وجهل رياب بواقع حال الأغصان والحافة... لا يقل عن جهل أخيها قرميد، الذي بدأ يصعد رويداً رويداً... والشوك يعذب جلده ووجهه على عجل... رياب أقبلت بسرعة، تبغي العون لأخيها... ونسيت أن الأغصان تخبئ تحتها الهاوية... وقد نادى عليها قرميد أن تتمهل، وأن تظل بمنأى عن الأغصان... لكنها لم تسمع النداء إلا بعد أن هوت بها شجاعتها الشاقولية جداً... فدفعت بأخيها من جديد إلى سقوطه، ملغية محاولته وجهده في الصعود والخروج من واقع حاله وحومة الأغصان المتشابكة الشائكة...

مأ الهلع نفس ولدي ابن الأحمد، وهما ينظران إلى أبيهما، الذي أعلن عليهما السخط، وسخطه ليس هيناً.... ولا ينتهي سريعاً... حمل عصاه العنيفة، واتجه إلى حيث التخم وولده... لكنه لم يصل إليهما، لأنهما شقا درياً شائكاً، وخرجا مسرعين، لا يعنيهما إلا الفرار... شاهد ابن الأحمد بيت ابن الحسن العالي... المسور بالأشجار... ..

وقف قرميد ورباب إلى جوار التخم الثاني، الذي يفصل أرض ابن الصالح عن أرض ابن الصيرة... وراق لهما أن يستريحا . قليلاً . قرب شجرات الدلب الكبيرة... وراق لهما أكثر أن يريا والدهما، هداً غيظه... وانكفاً عائداً إلى حيث شجرات الزيتون.

شقيق ابن الصالح لمح ولدي ابن الأحمد، لكنه لم يسع إليهما، لانشغاله بالفلاحة على الحمارتين العجيبتين....

ذاكرة أبي يوسف لا تنام، ولا تمحى الأحداث والعناوين فيها. وهي كالأشجار... يتذكر بشجاعة كما ينسى بشجاعة... ويحتكم، حين ترجع به ذاكرته إلى الأيام والأحداث والناس يحتكم إلى نفسه وثقافته، حتى لا يخطئ في التقدير، أو يجور في المحاكمة... حتى لا يعطي للحزن إلا ماله... وللحبور ماله، ولنفسه ماله، وللآخرين ماله.

راقه أن يمر على البيوت القديمة وهي لا تتفصل عن البيوت الحديثة، إلا ببعض التخوم والأشجار... مشى متمهلاً وفي رأسه تسبح ذكريات وأحداث، تجاوز بيت ابن الحمودة الجديد، ولم يكد ينظر إلى الفسحة التي أمام البيت، ولعله نظر من زاوية عينه، فلم يلمح أحداً، فاستمر في مشيته، أو لعله، وجد نفسه مع ذكرياته وأيام طفولته وحياته.

دمشق- السكن الجامعي- 1986.

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

شجرة التوت: رواية/ حسين عبد الكريم- دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2002
- 130 ص؛ 24سم.

1- 813.03 ع ب د ش

2- 813.009561 ع ب د ش

4- عبد الكريم

3- العنوان

مكتبة الأسد

ع- 2002/8/1448

